



محمد جبريل

http://arabicivilization2.blogspot.com

Amly

ضمان البيتزا الساخنة

HOT

لا شيء يعادل الطعم الرائع للبيتزا الساخنة. لضمان حصولك على البيتزا التي طلبتها ساخنة، تقدم لك بيتزا هت نظام الشعار الأحمر الجديد.
الشعار الأحمر هو ضمان من بيتزا هت لبيتزا ذات طعم رائع مباشرة من الفرن.





الخط الساخن

19000

w.pizzahut.com.eg

خدمة التوصيل عن طريق الانترنت متاحه بالقا



فى الليل تتعدد الظلال

مجموعة قصصية

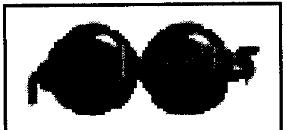
محمد جبريل

رئيس مجلس الإدارة

د. محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نــوال مـصـطـفى



العدد رقم ٥٤٨

أكتوبر ٢٠١٠

يصدر شهريا

عن

دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة

القاهرة

ت: ٢٥٩٤٨٢٢٣

تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف

عمرو فهمى

الإخراج الفنى

عبدالقادر محمد على

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع خارج مصر

سوريا ١٥٠ ل.س - لبنان ٥٠٠٠ ل.ل - الأردن ٢ دينار الكويت ١ دينار - السعودية ١٢ ريال - البحرين ١,٢ دينار قطر١٢ ريال - الإمارات ١٢ درهم - سلطنة عمان ١,٢ ريال تونس ٣ دينار - المغرب ٣٥ درهم - اليمن ٥٠ ريال فلسطين ٢,٥ دولار - لندن ٢,٥ ج ك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

العنوان على الإنترنت

www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى

ketabelyom@akhbarelyom.org

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

قبل أن تقرأ..

"في الليل تتعدد الظلال".. عنوان يثير التساؤلات ويُغري العقل للتفكير في معناه ومغزاه، إنه عنوان يحرك الحواس، ويتحمل العديد من التأويلات .
فى هذا العدد الجديد من سلسلة "كتاب اليوم" نقدم لعشاق الأدب مجموعة للكاتب الكبير محمد جبريل، وهو قاص وروائي له رصيده الأدبي ، استطاع على مدار سنوات أن يؤسس لمشروعة القصصى وينسج ملامح عالمه متأثراً بعبق شوارع الإسكندرية وسحرها.. هذه المدينة التي تحوي العديد من الجنسيات والأجناس والأعراق.
وقد حاز جبريل على جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب عن كتابه "مصر فى قصص كُتّابها المعاصرين"، كما حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٦، وعمل كصحفى فى جريدة المساء ورأس القسم الثقافى بها.
ولجبريل مجموعات قصصية عديدة مثل "تلك اللحظة" (١٩٧٠)، و"انعكاسات الأيام العصيبة" (١٩٨١) وترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية، و"هل" (١٩٨٧)، و"حكايات وهوامش من حياة المبتلي" (١٩٩٦)، و"سوق العيد" (١٩٩٧)، و"انفراجة الباب" (١٩٩٧)، و"حارة اليهود" (١٩٩٩)، و"رسالة السهم الذي لا يخطئ" (٢٠٠٠)، و"ما لا نراه" (٢٠٠٦).
كما أن إسهامه فى أدب الرواية منذ بداية السبعينات حتى الآن يجعله واحداً ممن أثروا الأدب العربي، فله روايات منها: "الأسوار" (١٩٧٢)، و"إمام آخر الزمان" (١٩٨٤)، و"من أوراق أبو الطيب المتنبي" (١٩٨٨)، و"الصهبة" (١٩٩٠)، و"قلعة الجبل"، (١٩٩١)، و"الخليج" (١٩٩٣)، و"اعترافات سيد القرية" (١٩٩٤)، و"زهرة الصباح" (١٩٩٥)، و"الشاطئ الآخر" (١٩٩٦)،

و"رباعية بحري: (١) أبو العباس (١٩٩٧)، (٢) ياقوت العرش (١٩٩٨)، (٣) البوصيري (١٩٩٨)، (٤) علي تمراز (١٩٩٩)، و"حكايات عن جزيرة فاروس" (١٩٩٨)، و"بوح الأسرار" (٢٠٠٠)، و"مد الموج" (٢٠٠٠)، نجم وحيد في الأفق (٢٠٠١) - زمان الوصل (٢٠٠٢)، و"البحر أمامها" (٢٠٠٨).

ومن دراساته الأدبية: "مصر في قصص كُتّابها المعاصرين" (١٩٧٣)، و"نجيب محفوظ.. صداقة جيلين" (١٩٩٥)، و"السحار.. رحلة إلى السيرة النبوية" (١٩٩٥)، و"آباء الستينات.. جيل لجنة النشر للجامعيين" (١٩٩٥)، و"مصر المكان" (١٩٩٨)، و"البطل في الوجدان الشعبي" (٢٠٠٠)، و"سقوط دولة الرجل" (٢٠٠٧).

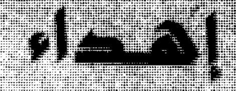
وفى هذه المجموعة القصصية يصحبنا محمد جبريل من خلال إحدى عشرة قصة عميقة الأسلوب رشيقة العبارة وسرد مشوق يعكس قدرة الكاتب علي التمكن من أدواته الأدبية ونفاذه إلي أعماق النفس البشرية ، فالعنوان موح بعالم غامض، له أسرار وطلاسم نحاول فك شفراته مع شخصيات وأحداث قصصه.

ولعل عناوين القصص تعبر عن عالم محمد جبريل من خلال هذه المجموعة الفريدة أتوقف على سبيل المثال عند : "نفض الرأس" .." فى الليل تتعدد الظلال" .."فى اتجاه السراى".."أفق البحر".." الإبانة عن واقعة".."كنز الشيخ المغربى" .."زاوية العميان".." سقوط اعتبار الوسائط".."زوال الغمة".."فى ساحة الإنشاد".."الوصية".."الصندوق".

والآن أترككم لتبحروا مع محمد جبريل وتعيشوا في عالمه الخاص من خلال المجموعه القصصية (في الليل تتعدد الظلال).. اقرأوا واستمتعوا..

نوال مصطفى

أكتوبر ٢٠١٠



إلى «مايا»



نفض الرأس

حرصت أن أحشو رأسى بما يحتاج إليه، بما يسعفنى فى المعلومـة والأسـئلة والنكتـة والملاحظة وعبارات الإعجاب والسخرية.

أذكر كيف حدث الأمر للمرة الأولى، وإن كنت لا أعرف متى. أحسست - بعد تلاحق الأوامر والملاحظات والتنبيهات - أن رأسى متعب، وثقيل، وأنه - لكثرة ما اختزن من أسئلة وأجوبة وملاحظات وذكريات ورؤى - قد امتلأ تماماً، تلاصقت - واختلطت - فى داخله الجمل والكلمات والحروف والأصوات، تبدو أذناى مغلقتين أمام ما أتهيأ لسماعه، تصطدم الكلمات بما يشبه الرنين، يلتقطها الفراغ من حولى، يمتصها، فيصعب تبينها. أعانى العجز عن المتابعة والفهم ومحاولة التعبير.

أحنيت رأسى تحت حنفية الماء، أدرته على آخرها، خمنت أن انسكاب الماء سيزيل ما قد يكون عالقاً بالشعر، ويتخلله. يقل ما أشعر به من ثقل الرأس، أو يختفى تماماً، لكن الرأس ظل يضغط على العينين والأنف والفم، الرؤية شاحبة، والأنفاس ألتقطها بصعوبة، والكلمات بطيئة، أو متعثرة. حتى العنق أشعر به مندفساً بين الكتفين، فلا أكاد أستطيع الحركة.

تفحصت الحبة التى قدمها لى الرجل. وعد أن ينسى الذهن كل ما فى الرأس من كلمات، هى مجرد حروف، لا تهب فى تشابكها معنى محدداً.

تبينت أن زوال التأثير الطارئ يخلف ما لا أستطيع مغالبته فى رأسى، كأن عنقى يحمل قطعة حجر هائلة، أعجز بها عن التفكير والكلام، وعن الحركة.

نفضت رأسى. تساقط منه حروف، مئات الحروف تشكل كلمات وجملاً متشابكة، ومختلطة، وغائبة المعنى.

اعتدت - من يومها - أن أعود إلى البيت، أبحث عن وعاء فارغ، أنفض فيه رأسى، تتساقط الحروف، آلاف الحروف المختلطة والمتشابكة، لا أفكر فى ما إذا كانت قبل أن أنفضها ذات معنى، أو أنها اختلطت مثلما يحدث للطعام حين ينزل المعدة.

لما تفرعت خطبة إمام جامع سيدى البوصيرى إلى مسارب غامضة، بدا السؤال محاولة للحصول على إجابة أطمئن إليها، لكن صوت الإمام علا بنبرة تعنيف: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

لذت بالصمت ، وإن عرفت أن اطمئنانى إلى إجابة مقنعة ليس مما يشغل الإمام. أزمعت أن أجاوز نفض الرأس عن أية أسئلة، فلا أرفقها بأجوبة يضيق بها رأسى.

أهبط سلالم البيت، تلاحقنى دعوات أمى بأن يجنبنى الله شر أولاد الحرام، وتحذيراتها بأن أعنى بنفسى، أسير على الرصيف، أحاذر زحام الطريق، أتأكد من خلوه قبل أن أعبره إلى الجهة المقابلة، أكتفى بالطعام الذى حملته من البيت، لا أكلم أحداً، لا أسير فوق قضبان الترام، أنظر أمامى ولا ألتفت حولى.

العالم من حولى واسع، لكننى لا أستطيع التحرك فيه، أو التعرف ـ بطمأنينة ـ إلى ملامحه. يختلط الصخب فى رأسى، أشبه بالآلات العالية الأصوات، تحاصرنى النصائح والتحذيرات والتنبيهات والأوامر، فلا أجد فى نفسى قدرة على فعل ما.

نفضت رأسى من كل ما كان ما بداخله. حتى ما اقتحمه، أو تسلل إليه، من الملامح الغاضبة والحزينة والمتجهمة، والمشاهد التى لا أحبها ، فى النوافذ والشرفات وعلى شاشة التليفزيون وفى الشوارع والحدائق والمقاهى، تحل فى رأسى بالقبح والدمامة.

لاحظت أن تساقط الكلمات ـ بعد نفض رأسى ـ يعيد كل شيء إلى حاله، لا يبقى ما أتذكره، ما أصل به ظروفى الحالية، وخطواتى المقبلة، والتوقعات. الخلاء يترامى من حولى بلا آفاق، وبلا قدرة على التصرف .

يخلو الرأس تماماً من كل ما فيه، يختلط ما كنت أعرفه بالأوامر والتحذيرات، نقطة البداية دائمة، متكررة .

أثارنى قول الرجل - فى احتدام مناقشة بيننا - إنى فارغ الرأس.
هل يعرف ما أفعله؟ هل يبدو أن رأسى يخلو مما كان فيه ؟

حين استعصى الخلاف حول شروة سمك، أخليت مساحة من رأسى، أقلب التفكير دون أن يتشابك بمشكلات أخرى. بدا الخلاف مستعصياً فى غياب الخبرات السابقة، التجارب التى تفيدنى فى مناقشة الأمر، والتوصل إلى نهاية أريدها.

لم يعد خلو الذهن مفيداً فى كل الأحوال.

تكلم الرجل عن " الدروس المستفادة "، فعرفت أنه من الخطأ أن يتخلص الذهن من كل ما بداخله . تركت المشكلة للوقت، يستعين بما يفد إليه من أسئلة وإجابات وقراءات وكلمات وملاحظات، تقرب الوصول إلى الإجابة الصحيحة.

حرصت أن أحشو رأسى بما يحتاج إليه، بما يسعفنى فى المعلومة والأسئلة والنكتة والملاحظة وعبارات الإعجاب والسخرية.

ركبنى شعور بإمكان التحرك، والانطلاق، والخلاص، والنسيان، والتجربة، والتعلم، والمضى إلى الاتجاهات التى أريدها. يحدونى الشوق إلى ما لا أتبينه من المشاهد الجميلة، وإلى الانطلاق فى أمكنة أعرفها، أتوق إليها، وإن لم أصنع لها فى ذهنى تصوراً محدداً.

أقبلت على القراءة. شغلنى التصرف الذى يجدر بى أن أفعله، أنفض الرأس مما ينبغى أن يتلاشى، الملاحظات والأسئلة والتعليقات والثرثرات وهمسات الوقيعة والنميمة والدس والغيبة والكراهية والتآمر، وكل ما يثقل رأسى، تظل القراءات التى اختارها، وأخلو إليها، بالساعات، فى موضعها من الذهن، لا تتركه. أتسلى بوصل الحروف، أشكل ما يعبر عن كلمات لها معنى، تعبيرات لها معنى.

فى الليل تتعدد الظلال

هل كانت هذه الكلمات هى
انفـراجـة البـاب لاقـتـحـام
وحـدتـى بالزيارات والأسـئلة
والملاحظات؟ هل ثمة سبب لا
أعرفه؟

أعدت قراءة الخبر. لم أصدق أن الأمور تنتهى إلى ما انتهت إليه. تلاحقت ـ مختلطة ـ ملامح وقسمات: الطريق بين الجبال، تعلو الصخور على جانب منه، ويبين الوادى فى الجانب المقابل، الفندق المطل على سوق السمك، الطريق الصاعدة إلى المدينة القديمة، الكورنيش الحجرى يحيط فى نصف دائرة بالبحر والقوارب الصغيرة.

لماذا اخترتنى؟ وهل اخترت آخرين؟

أميل إلى الصمت والإنصات، أكثر من ميلى إلى الكلام والفضفضة وإلقاء الأسئلة. أذكر قولك فى لقائنا الأول إن الزيارة للتعارف. ودعتك دون أن نحدد موعداً تالياً، لكن القامة الطويلة، والعينين السريعتى التلفت، والابتسامة التى تملأ الوجه، طالعتنى فى اليوم الثالث، ثم تكررت الزيارات .

مرة وحيدة ، سألتك:

ـ ألا تحن إلى وطنك؟

أعدت لى السؤال :

ـ وأنت؟

قلت وأنا أهز رأسى:

ـ الظروف القاسية أجبرتنى على الرحيل.

هل كانت هذه الكلمات هى انفراجة الباب لاقتحام وحدتى بالزيارات والأسئلة والملاحظات؟ هل ثمة سبب لا أعرفه؟

وجدت فى تحركك داخل الشقة ما يعمق صداقتنا: تصنع شاياً فى المطبخ، تبحث عن طعام فى الثلاجة، تشاهد برامج التليفزيون، تطل من النافذة على الحديقة الخلفية، تلتمس الراحة بالتمدد فى حجرة النوم. ما طرح الأسئلة تلك الأوراق التى كنت تكتب فيها ما لا أتبينه، تدسها بمجرد أن ألمحها ـ مطوية ـ فى جيب الجاكت، كأنك تحرص على إخفائها، وألا أتمكن من رؤيتها. تنطق كلمات

تعبر عن الاعتذار، أو عن غير معنى محدد، وإن بدا ارتباكك واضحاً بما يصعب إخفاؤه.

الاحظ تتبع عينيك لتحركى فى داخل الشقة. يزيد إحساسى بالارتباك. أخمن أنك تضع تصورات لما ستكون عليه العلاقة بيننا. لا أعرف ماذا تعده، وما الإطار الذى تضعنى فيه.

نبهتنى ملاحظاتك إلى ما لم أفطن إليه. لم أكن أجد فى عملى ما يبعث على الضيق، أو ما أشكو منه. أعدت التأمل، وإلقاء السؤال - بينى وبين نفسى - هل أعيش الخطر دون أن أعرف؟

اكتفيت بهز الرأس لما طالبتنى به، أن أظل فى البيت معظم الوقت، لا أتردد على الأماكن العامة بلا سبب مهم، ولا أجلس على المقاهى.

نصحتنى بألا أترك نفسى على سجيتها فى مكالمات التليفون. إذا اطمأننت إلى محدثك، فأنت لا تستطيع أن تطمئن إلى الأذن التى تنصت، وتنقل ما أنصتت إليه. أذهلتنى نصيحتك بأن أتصرف بطريقة طبيعية.

لم يكن ثمة سر أخشى افتضاحه:

- هذا هو تصرفى بالفعل.

دون أن تناقش ما قلت:

- علينا أن نبتعد عن الشبهات .

حدثتنى عن أعداء يترصدوننى من حيث لا أتوقع. قلت إنى لو سايرتك، فسأنجو من التهديد دون أذى.

أزمعت التخلص من كل ما فى الشقة من كتب، كتب فى السياسة والدين والاقتصاد والثقافة والتاريخ، فى كل ما يعنى الصحفى بقراءته. لو أنهم داهموا الشقة فسيجدون ما يبحثون عنه ، يحتفظون بما يمثل إدانة لتهم يعرفونها، ولا أعرفها. أستعيد نصائحك بتوخى الحيطة والحذر، كل الكتب والأوراق والشرائط

يجب إبعادها عن البيت، من يفتش يشغله ما يصلح دليلاً.

- لا تترك البيت إلا لضرورة، فكل تحركاتك مراقبة، قد تفاجأ - عند السفر - بأن اسمك على قوائم المراقبين، ربما لن يكتفوا بمنعك من السفر، ويعتقلونك.

- لماذا ؟

أشعر أنك تحاول التلميح لما يدفعنى إلى بدء المناقشة، والاستمرار فيها، على النحو الذى تريده .

بلغ حرصك حد الإلحاح على أنى - كما قلت - تحت المراقبة . من يراقبنى ؟ لماذا ؟ وإلى متى؟ وهل تختفى المراقبة إن عدت إلى وطنى؟

- منذ قدمت إلى هذا البلد، صار لك ملف يحصى أنفاسك.

وتهز قبضتك:

- أنت فى قلب النار بالفعل!

تخيفنى من كل شيء: الناس، الشوارع، البيوت، الخلاء، الليل، النهار.. تتناوبنى مشاعر القلق والتوتر والتوقع والخوف. أنتبه لصوت سيارة شرطة، أو سيارة إسعاف. أنتفض لصوت جرس الباب .

تهمس بنبرة محذرة: السماعات المبثوثة فى أنحاء الشقة، لا أراها ، لكنها موجودة. من المستحيل أن أصل إلى الأماكن التى وضعت فيها، مجرد دوائر متناهية الصغر كرءوس الدبابيس.

ترفع سماعة التليفون دون أن يرتفع رنينه، تقربها من أذنك، تصيخ السمع، تقلب السماعة، تفكها وتعيدها، أخمن ما تريد التأكد منه.

تسألنى عن التليفونات التى أتلقاها: هل أعرف أصحابها؟ هل يفاجئنى من لا أعرفه؟ ما الجهات التى تبعث لى رسائل؟ ماذا تحمل رسائلها؟

قد أرفع السماعة فلا يأتى رد. تلتقط السماعة، تتبادل كلمات هامسة مع شخص آخر لا أعرفه.

دخلت المطبخ بعد انصرافك. قلبت فى سلة الزبالة، أفتش عن الورقة الصغيرة التى ما أن لمحت نظراتى حتى كورتها فى يدك، ربما دسستها فى جيبك، أو ألقيت بها فى دورة المياه. أدركت أن شيئاً ما تحرص على إخفائه.

تملكنى الإحساس بالمراقبة، سيطر على ذهنى تماماً. ثمة شخص ما فى موقع لا أتبينه، يراقبنى، يلاحقنى بنظراته.

أبتعد عن السير فى الشوارع الفسيحة. أخترق الشوارع الجانبية، التقاطعات والمفارق والصخب والهدوء والدكاكين والأبواب والنوافذ المغلقة والمفتوحة والأشجار على الجانبين. أتلفت بتوقع ما يبدو غريباً.

يحملنى التوجس على التوقف، بين كل مسافة قصيرة وأخرى. أعاود التلفت، ثم أواصل السير.

أعرف من يراقبوننى، من يصرون على مطاردتى، لا يستوقفوننى، ولا يوجهون أسئلة . أعرفهم من نظراتهم المحملة بالفضول والتشكك .

نظرت فى اتجاه ناصية الشارع . لم أجد الرجل الذى كان يلاحقنى ، غاب بنظراته عن الموضع الذى تركته فيه . أزحت ستارة النافذة المطلة على الطريق العام . بدا الرجال الثلاثة فى الأرض الخلاء ، المقابلة ، كأنهم وقفوا لمراقبتى ، يتهامسون ، وتتجه نظراتهم ناحية البيت .

أقسى الأمور أن تشعر بعينين تراقبانك، تتبعانك، تلاحقانك: حركاتك وسكناتك وخطواتك. شعور يبلغ حد الموت.

تعود بعد أيام من الغيبة. أعرف طريقة ضغطك على جرس الباب. أتأمل ما يكون قد ارتسم على ملامحك من تغير، تحدثنى

عن المهمة التى سافرت إليها خارج العاصمة.

قلت لى:

- أعرف أن نشاطك مهنى، لا صلة لك بالسياسة.

ولجأت إلى يديك معبراً:

- لكنك تلتقى بالناس، تناقشهم، تتعرف إلى أفكارهم وآرائهم، ما أطلبه أن تنقل ما تسمعه إلينا .

وتلكأت الكلمات بين شفتيك:

- مجرد وسيلة لمنع أخطار متوقعة!

منذ نبهتنى إلى السيارات المتباينة الأشكال، تراقبنى منذ خروجى من البيت، صرت أتلفت قبل أن أستقل سيارتى، ثم وأنا أنطلق فى الشوارع، أحاول التعرف إلى الأعين المتابعة.

قد تومئ بذقنك، تحذرنى من جرسون الكازينو المطل على البحيرة الواسعة. تقول - فى لحظة ابتعاده - :

- ما يفعله عمله الظاهرى، عمله الحقيقى هو التنصت لأحاديثنا!

حتى بائع الصحف على ناصية الميدان المفضى إلى مفارق وتقاطعات، سألتنى إن عرفت من الكلمات القليلة التى أتبادلها معه حول أبرز ما فى الصحف، إن كنت قد تعرفت إلى أفكاره واتجاهاته التى يكتمها عن غير الأصدقاء، وما إذا كان ينتمى إلى حزب أو تنظيم سياسى.

قاومت ترددى فى قبول إلحاحك بزيارتك فى بيتك. الهاجس - فى داخلى - مثل حاجزاً. لما أبديت ملاحظة حول موضع البيت فى الشارع العمومى، والشارع الخلفى. قلت إن توقع الخطر يفرض تعدد وسائل التجنب، أو الفرار.

ملاحظتى حول المدخلين المفضيين إلى داخل البيت، كرت الخيط عن ضرورة الحيطة اللازمة.

أحسست بما يشبه الارتعاشة بطول ظهرى، لما تحدثت عن

الاعتقالات التى بدأت، ولا تريد أن تنتهى.

حين عرضت أن أزور عاصمة بلادك، قلت فى سرعة كأنى أدفع تهمة:

- المشكلة هى العداء بين حكومتى البلدين.

- لن تحتاج إلى جواز سفر.

أردفت موضحاً:

- مجرد تصريح بالدخول، تمزقه فى طائرة العودة!

أفطن لمحاولاتك فى دفعى لإهمال تحفظى على ما يبدو غريباً، أو صادماً. كنت أتفادى الحديث عن أى شيء يتصل بالسياسة.

قلت لأتأكد مما قلت:

- عن أى تنظيم تتحدث؟

- نحن نسعى للثورة على النظام القائم.

تحركت - بعفوية - فى موضعى:

- ما شأننا، ما شأنى بالنظام؟.. أنا ضيف على البلد .

وعلا صوتى بالدهشة:

- قد يبرر عملك السياسى ما تسعى إليه.. أما أنا..

قاطعتنى:

- صدقنى.. عملك كصحفى يجعلك موضعاً للمطاردة.

أسير فى الشوارع الهادئة والجانبية. ضوء النهار يعطى ظلاً وحيداً، أضواء الليل تعطى ظلالاً تلاحقنى، تسبقنى، ثم أسبقها، تختلط فى العديد من الظلال. أطمئن إلى الظل الوحيد، ظلى، يأخذ جانب الموضع الذى تريق فيه الشمس أشعتها. تعدد الظلال - فى الليل - يخيفنى، تتعدد بتعدد المصابيح ومصادر الضوء، تختلط الظلال وتتشابك، تطول وتقصر، يقتحمنى الخوف من آخرين، يلاحقوننى، أو يحيطون بى. أتلفت فأعرف أن الظل لى، وأنى لو ابتعدت عن الأماكن المنيرة فستختفى الظلال، حتى الظل الوحيد

قد يختفى.

رافقنى الخوف لما عدت إلى مدينتى، يسيطر على مشاعرى خوف من المجهول، لا أعرف بواعثه، ولا كيف أتخلص منه.

يناوشنى الإحساس بالتوقع، بالخطر القادم. أتوقع ما لا أدركه، ولا أعرف ما هو. أعيد التلفت، أحدق فى الأماكن المظلمة، أو انفراجات ما بين البنايات والأشجار. ربما يختفى من يتابعنى، ويعد للشر. أطل من شراعة الباب - لتعالى الجرس - بالحذر والتوجس.

أعدت قراءة الخبر فى الجريدة: الاسم والعمل، حتى صورتك الشخصية، وإن طالت لحيتك، ربما فى فترة الاعتقال.

هل عرضت على آخر ما عرضته علىّ فوشى بك؟ هل نقلت إليه إحساس المطاردة، فضاق به؟. لم يكتمه فى نفسه كما حرصت أن أفعل.

البوح مخرج من الدوامة القاسية.

فى اتجاه السراى

كانت جدتى تبدأ يومها بتناول قطعة جبن وكوب من الشاى، لكنها - ذلك الصباح - صامت عن الطعام والشراب. لم تتكلم عن البواعث، ولا إن كانت قد فطنت إلى ما فعلته أصلاً.

لم نكن نجد فى كلمات جدتى ما يثيرنا، أو يدفعنا إلى التساؤل. نعرف أن الخيال فى ما تتحدث عنه يختلط بالحقيقة، ما ترويه جدتى حدث بالفعل، لكن الخيال يضيف إليه، وينقص منه، يحوره فيصنع ما لم يكن فى أذهاننا ولا تصورناه. ما تراه قد يكون وقائع غير حقيقية، وربما توهمته، تشهدنا لأنها تريد أن تصدق نفسها، وتدفعنا إلى تصديقها، تدرك أننا نعانى الحيرة فى ما إذا كانت تروى ما شاهدته، أم أنها تلجأ إلى التخيل.

وجد أبى فى كلمات جدتى حظاً كبيراً من الأنس والاتصال، وما يرقى إلى كرامات الصوفية. هى تملك الرؤية والفعل، تفيض عليها الإلهامات والمكاشفات بما يختص به أولياء الله والتابعين. وقال عمى هارون إن جدتى على صلة بمن لا نراهم، خواص من الأخفياء أصحاب السر، سترهم الله، وأخفاهم عن الناس، فلا أحد يراهم سواها. وتحدث عمى هارون عن عوالم لا حصر لها من الملائكة، تسمع - وحدها - أصواتهم، يكشفون الغوامض، ويعينون على المعانى، وتوضيح ما يخفى، ويتنبأون بالوقائع قبل حدوثها، وأذاع عم مصباح خادم زاوية خطاب، إنها خاوت جنياً، هو الذى يملى عليها رؤاها، وإن وهبها الله فى النوم ما تدركه من عالم الغيب، تصحو من نومها - فتشير لأهل الحى بما يصلح لهم، وينفعهم. تكتنز عباراتها بالحكم والإشارات والدلالات والمعانى. تجلى بصيرتها ما يبدو محجوباً، وتجلى مرآة سريرتها ما حوته الأسرار.

كانت تتطلع إلى ما يتجاوز الميدان وتقاطعات الطرق والبحر. ننظر إلى حيث تذهب عيناها. تشير بأصابعها إلى من لا نراهم، وإلى نفسها. تتكلم، وتتكلم، كلمات متقطعة، وعبارات غير مكتملة. كأنها تخاطب مجهولاً، تتلاحق الكلمات، كلمات واضحة ومدغمة، تلجأ إلى تعبيرات يديها، تنبسط ملامحها وتنقبض، يخفت صوتها،

ويعلو، تعكس ملامحها توقعات ومخاوف، نلتقط مفردات الشارع والجامع والوقف والميدان، وأسماء أخرى نحاول وصلها بما يشكل المعنى الذى ربما تقصده. يعروها انفعال وهى تكلم نفسها، يبين فى تقلص ملامحها، وتعبيرات يديها ، كأنها تتجه بكلماتها إلى اشخاص حقيقيين. وكانت ترنو إلى الأفق بحثاً عن علامات.

قال أبى إن جداً لنا قديماً، عنى بالجامع. أوقف عليه ما يدر ريعاً للإنفاق على خدم الضريح، ومريدى المرسى من أتباع الطريقة الشاذلية، وأرباب الأشاير، والفقراء، والعجزة، واليتامى . تتابعت توكيلات الورثة فى حق إدارة الوقف، ما يتصل به من أراض وعقارات. حتى الطرق الموصلة بين البنايات ظلت تابعة للوقف، لا تؤول إلى المنفعة العامة، ولا إلى غير الورثة.

الذاكرة هى صلة جدتى الوحيدة بالمحكمة الشرعية، على ناصية شارع فرنسا وشارع سوق السمك القديم. تنزل درجات سلم البيت المطل على شارع سيدى خضر. تخترق الشوارع المتقاطعة ـ بخطوات متباطئة ـ حتى التقاطع. تميل إلى اليسار ناحية الباب الخشبى المفتوح. تصعد الدرجات الرخامية المتآكلة، إلى الطابق الأول. تدفع الباب ـ فى المواجهة ـ إلى الصالة الواسعة، تجاورت فيها المكاتب الخشبية ، علاها دوسيهات وأوراق. كان أبوها، ومن قبله جدها، والسابقون من العائلة، يحرصون على تسجيل معاملاتهم، كتابة، وتوثيقها بالمحكمة الشرعية .

تلجأ إلى المحكمة لمراجعة ما كان يقتصر عرضه على المحكمة الشرعية: وقائع الزواج والطلاق، طلب شجرة العائلة لإثبات الأحقية فى الوقف، حصر التركات وأسماء الورثة، مراجعة خرائط المساحة، وكشوف الضرائب العقارية، وصحة نفاذ البيع أو الشراء، تقديم الضمانات، المشاركة، الأمانات، الاختلاف حول مشروع تجارى أو صفقة، المطالبة بقروض طال التوقف عن دفعها.

أهملت ما بدا على الشيخ عمار - رسيم ذكر البوصيرى - من انشغال بضبط إيقاع الحضرة: إشاراته بهزات الرأس ، وتصفيق اليدين، تنعكس على أداء المنشدين فى وقفتهم وسط الحلقة، وعلى قيام الذاكرين وقعودهم وسكونهم وذكرهم، انتقالهم من طبقة إلى أخرى فى سرعة الإيقاع وصوت الإنشاد. علا صوتها بكلمات متلاحقة، تعيب على إمام جامع البوصيرى أنه حصل لنفسه على ما فى صندوق النذور، وما تدره الموالد من أموال وعطايا يقدمها الناس إلى مقام البوصيرى. اغتنى الرجل بما ليس من حقه.

شاب صوتها مرارة فى شكواها عن أبى. أجهده السأم والتعب، فقبل التنازل عن حقوق لنا كى نضمن الحياة فى طمأنينة. أعلن يأسه من رفع القضايا، وكتابة المحاضر والعرائض والشكاوى، وإرسال البرقيات، وجمع الأدلة، والتأكد من صحة توثيق العقود، وحضور تحقيقات النيابة، ومقاومة الضغوط، وحسبة الأنصبة بما يضمن العدالة. الوصى الذى فرض نفسه على المحكمة، دون اعتبار لما يطلبه الورثة، مارس من الحيل ما يصعب تصوره، ولا مواجهته. لا يتصرفون فى أموال ولا عقارات إلا بموافقة الوصى، هو الذى يقرر. إذا أعوزته الحيل، فإن الأذية - بتحريضه - تخضع من يشغله الاعتراض، أو المناقشة، أو حتى السؤال.

فاجأها الشيخ عمار بالقول :

- أنت تناقشين أمور الدنيا، وحضرتنا تتجه إلى الآخرة.

وهى تخلى ملامحها للدهشة:

- نحن نعيش فى الدنيا !

قال:

- لا شيء فى الدنيا يساوى ذكر الله !

ولوح بقبضة يده:

- عدا ذكر الله ، فإن كل ما فى الدنيا ملعون!

ثم وهو يتابع الكلمات بهزات رأسه:
- الحضرة تلزمنا بأن نقطع كل علاقة تحول بيننا وبين مقصودنا.
وأغمض عينيه، ورفع رأسه:
- مقصودنا هو الذات الإلهية.
تعددت الروايات حول المكانة التى بلغها بين المتصوفة والذاكرين، وإن اتفقت على الظروف التى دفعته إلى ترك الدنيا، والإقبال على الآخرة. كان تاجر علافة فى شارع الموازينى، شغله البيع عن أداء صلاة الظهر - جماعة - فى موعدها. أيقظته - آخر الليل - كلمات تحذره من التخاذل والمماطلة والتسويف. لام نفسه على انشغاله بغير ما يجب الانشغال به. عزم على هجر ما كان قد انساق إليه، وتدارك ما فاته من امتثال لأمر الله.
ترك مفتاح الدكان لأكبر أبنائه، ولاذ بمقام البوصيرى. أراد ألا يكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. زهد، وتقشف، واتقى، وتورع، وأعرض عن التكسب. صرف قلبه عن الهمم الدنيوية، تسامى عن كل ما يفسد المرء بربه، وعن الدنيا وزينتها. أسرف فى الندم والتوبة والبكاء. جمع من حوله الذاكرين، ينشدون فى الحلقة بين صلاتى العصر والمغرب، على الرصيف ما بين حد الجامع وميدان أبو العباس. قصر معظم أوقاته على الذكر، أخذه ذكر الله عن نفسه، وعن الناس، فنيت نفسه عن نفسه، ظلت فى الله وبالله، وامتلأت بالمراقبة والأنس. خضع للذل والانقياد والامتثال والضعف والخشوع وقبول الأمور على علاتها، والرضا بما يخفف عنه الحساب.
سحب الشيخ عمار نظراته إلى أفق البحر:
- وجدت ربى فلا أنظر لشيء سواه!
وغير نبرة صوته:
- تعلمنا أن المناقشة فى أمور الدنيا تورث الخلاف.

وضرب الفراغ بيده كمن ينهى المناقشة:
- الدنيا ليست همنا!

أغلقت جدتى عليها باب البيت، فأدركنا أن صدود الشيخ عمار لها أحزنها. كانت تتوسط فى المنازعات العائلية، يعرض عليها أفراد العائلة ما يواجههم من مشكلات، فنيت صحتها فى خدمتهم، وكثرت همومها من أجلهم. لم يشغلها ما يتمناه كل شخص لنفسه.

ألفنا كلماتها المحذرة، وتوبيخها لمن يخطئ - على مرأى من الناس - ودفعه إلى الرجوع عن غيه. كانت تعطى انتباهها لمن ينتحى بها جانباً، يهمس لها بما يعانيه، تنصحه بكلمات قليلة، أو تعده بالبحث عن حل. تدرك ما يريد محدثها بمجرد النظر فى عينيه. ربما أدركت المعنى دون حاجة إلى النظر.

كانت تسلم نفسها لطمأنينة قدرية، ولقوى خفية تدفعها إلى التصرف الصحيح. لم تكن تميل إلى التفاؤل أو التشاؤم، ولا تؤمن بالأحجبة والتمائم وأعمال السحر، وإن أجادت تفسير الأحلام، ورواية حكايات الأشباح والأرواح والأطياف المخفية، وكانت تحرص - قبل أن تذهب إلى النوم - على قراءة الفاتحة والمعوذتين وآية الكرسى.

ثالث يوم، غادرت جدتى البيت وهى تعانى لهاث أنفاسها. قالت للرجال على قهوة مخيمخ: أمضيت فترة بعد الظهر فى لقاء سيدى المرسى. انتظرت حتى انتهت صلاة الظهر، أعرف أنه يؤديها بالقرب من ضريحه أسفل الجامع، أظهرت له نفسى، وطلبت عونه. صرفنى بوعد اللقاء فى الأرض الخلاء خلف قلعة قايتباى، لحق بى فى الموعد المحدد. كلمته عما نعانيه، سأل، وتقصى، وتحرى الأسباب. رويت له المشكلة من بداياتها. رنوت إليه أنتظر رأيه.

أشارت إلى خالى مراد، وقالت:
- استمع إلى كل ما قاله سيدى السلطان.

أهملت نظراته المرتبكة:
- أليس كذلك؟
أومأ برأسه مؤمناً.

كانت جدتى تبدأ يومها بتناول قطعة جبن وكوب من الشاى، لكنها - ذلك الصباح - صامت عن الطعام والشراب. لم تتكلم عن البواعث، ولا إن كانت قد فطنت إلى ما فعلته أصلاً.

رافقها إلى ميدان أبو العباس محام له سمعة طيبة وهيبة. وزع رجالاً يحيطون به فى أرجاء الميدان، وعلى مفارق الطرق والنواصى، ومداخل الشوارع الجانبية والحارات. قاسوا المساحات بآلات يحملونها، حتى البنايات المطلة على الميدان، أحصوا مجموع طوابقها وشققها والعدد التقريبى لسكانها. نسبوا كل شيء إلى عائلتنا التى خاض أفرادها - فيما روى المحامى - معارك لم يعدوا انفسهم لها. لم يبق على قيد الحياة سوى عدد قليل، طال صمتهم. لم يحاولوا استعادة حقوقهم المغتصبة. غاب طرف خيط البداية، الشيوخ وحدهم يستعيدون ما حدث، ويروون الحكايات.

أخذت جدتى على نفسها مسئولية تثبيت الوراثة، من بقى من عائلتها هم الملاك الحقيقيون لمساحة الميدان والبنايات المحيطة.

تمازج فى صوتها تأثر وخوف:
- قال لى سيدى المرسى إن غضبه لن يزول ما لم نستعد الميدان.
ثم وهى تعتصر جبهتها بأطراف أصابعها:
- لابد أن نستعيد ميدانه المسلوب.

استعدنا صورة الميدان قبل أن يغيب المبنى الضخم فى وسطه، والأسوار فى الواجهة، وفى تقاطعات الشوارع الجانبية: الموالد وحلقات الذكر ومواكب الأعراس وأكشاك الختان وخيام الصوفية والولائم وأرغفة الفول النابت والأعلام والأشاير والابتهالات والأدعية والتسابيح والأناشيد والأغنيات والسير والملاحم الشعبية.

الميدان ـ بالشوارع الجانبية المتفرعة منه، والبنايات التى تطل عليه، وحتى الأشجار المتناثرة فى أرجائه ـ لم تندثر ملامحه. ما حدث هو نتيجة ترتيبات أجيد حبكها فى الخفاء، وأنفق ـ لتحقيقها ـ أموال لا حصر لها.

قال الشيخ طلبة الغريب إمام ياقوت العرش إن حب الناس لأنفسهم، وعدم خروجهم عن حظوظها، وعن مطالبهم الدنيوية، تمنعهم من ترك الأسباب بالاعتماد على صاحب الأمر.

وقال فى نبرة مطمئنة:

ـ علمنا شيوخنا أن نصبر على البلاء حتى يحكم خير الحاكمين!

ثم وهو يعدل من وضع عباءته على جسده:

ـ نحن أخرجنا الدنيا من نفوسنا، لأن الآخرة هى ما يشغلنا.

وسرح فى صمت، كمن يقلب الأمر فى ذهنه:

ـ إذا كان ما نحياه عقوبة من الله، فمن يستطيع رد عقوبة خالقه؟

قالت جدتى كالمتذكرة:

ـ مولد سيدى المرسى .. ما موعده؟

قال خالى مراد:

ـ بعد ثلاثة أشهر.

ـ منذ أنشئت البناية الضخمة فى قلب الميدان ضاق عن استيعاب المولد.

واتجهت إلى الفراغ بنظرة ساهمة:

ـ تكتفى فرق الصوفية بأعداد قليلة، أو تنصب الخيام فوق الدحديرة، وفى الشوارع الجانبية.

ثم علا صوتها :

ـ أعيدوا زحام المولد إلى زمنه القديم.

تناقل رؤساء الفرق دعوة جدتى. طالبوا الأتباع والمريدين

بالتجمع فى قلب الميدان، يمتلئ فيتفرعون إلى الشوارع الجانبية.

سبقتنا جدتى فى مغادرة البيت. اخترقت الشوارع الخالية إلى الميدان . لما لحقنا بها كان الميدان قد بدأ فى الامتلاء. أخلى الناس الخيام، وقدموا من مفارق الطرق. علت الأشاير والأعلام واللافتات، وتلاصقت الأجساد. غابت الأدعية والتسابيح والأهازيج والأناشيد الدينية. حلت الهتافات بدلاً منها، منغمة، مختلطة، متشابكة، لم أفهم كلماتها، ولا المعانى التى تقصدها، وإن علت فشكلت خيمة هائلة.

سارت جدتى فى مقدمة الزحام ونحن نتبعها. بدّلت طريقها المألوف من اليمين إلى قلب الكورنيش، ومنه إلى قلب المدينة. مالت إلى اليسار، ناحية مرسى القوارب.

امتد الزحام إلى ما بعد انحناءة الترام، عند نقطة الأنفوشى. كأن جدتى تمضى بالمتظاهرين إلى سراى رأس التين .



أفق البحر

لم يدر بباله، ولا تخيل، أن المشهد الذى اعتاده يختفى، يحل - بدلاً منه - مشهد آخر تماماً، تحده المسافة نفسها.

أخلى وجهه للذهول، حين قال الضابط أمام البوابة الحديدية المواربة:

- لم يعد الدخول متاحاً إلا لأبناء المدينة؟

فرك عينيه، وفتحهما، يحاول استيعاب المعنى:

- أنا من الإسكندرية.. ما تمنعنى من دخوله ميناؤها الشرقى..

- ذلك زمن ماض. هو الآن مدينة تقتصر على ناسها!

هل جففت الأرض، وتراجع البحر، لتفصل المينا الشرقية عن المدينة بالفعل؟ هل صارت مساحة المياه الهائلة - بعد أن تحولت إلى بنايات وشوارع وميادين وحدائق - محرمة عليه؟ .. لا يملك حتى أن يطل على الحدوة المائية ما بين قلعة قايتباى ولسان السلسلة؟

اعتاد - فى كل صباح - أن يفتح النافذة المطلة على البحر. يدخل الضوء وامتزاج رائحة الملح واليود والأعشاب، وما يتناثر فى امتداد الأفق من فلايك وبلانسات وصيادين. يعبر الطريق إلى الكورنيش الحجرى، تتغير ألوان الموج ما بين زرقة السماء، والسمرة الداكنة، بخيمة السحب المتكاثفة . فى أسفل، يرتطم رذاذ الموج بالمصدات الأسمنتية. إذا كان الوقت شتاء، فإن الرذاذ يعلو، يتحول إلى قطرات غزيرة تغرق ملابسه، فلا يغيب إحساسه بالنشوة.

لم يدر بباله، ولا تخيل، أن المشهد الذى اعتاده يختفى، يحل - بدلاً منه - مشهد آخر تماماً، تحده المسافة نفسها .

صحا على اختفاء الكورنيش الحجرى والأمواج والبلانسات والقوارب والمصدات الأسمنتية وصيادى الجرافة والطراحة والسنارة وعسكرى السواحل. اختفت المياه، وافترشت الشمس مساحة الأرض الخالية من الظلال. انبثقت - كحلم - مساحات جفت مياهها، فى المسافة بين السلسلة وقايتباى. نصف الدائرة انتقل إلى الناحية المقابلة فى نصف دائرة معكوسة .

أهمل زيادة اللودرات والأوناش والرافعات، وإلقاء مكعبات

الأسمنت، والردم. فسر ما حدث بأن لحماية المينا الشرقية من تأثيرات النحر والنوات. لم يتصور أن ينتهى ذلك كله إلى الأرض الواسعة، المنبسطة.

أذهله موت البحر والأمواج، كأن الرمال امتدت من الشاطئ، فغطت البحر تماماً، واختفى الموج. لم يعد ما يشى بالحياة فى المساحة الواسعة. النافذة لا تطل على المينا الشرقية، ولا يترامى - أمام البيت - سوى اختلاط الرمال والحصى وقطع الحجارة. البحر مجرد تصور فى نهاية الأفق ، وإن ظل فى سمعه صوت اصطخاب الموج، وتكسره على مكعبات الأسمنت والكورنيش الحجرى.

قرأ فى الجريدة أن الأرض الرملية ستتحول إلى حى جديد، حاول تصور ماذا ستكون عليه، البنايات والشوارع والميادين والبوابات، وما إذا كان الناس الذين سيقيمون فيها من أهل الإسكندرية، أم يفدون إليها من مدن أخرى؟

روى أبوه عن انتقاله من داخل المدينة إلى الشقة المطلة على البحر. لم يكن الكورنيش الحجرى قد أنشئ، ولا وضعت المصدات الأسمنتية فى داخله. كانت الأمواج تبسط مدها، دون تكسّر على ما يعيق تقدمها. البيوت والأكواخ والأكشاك فى مقدمة بنايات المدينة، على حافة الشاطئ مباشرة، تمتد أمامها المساحة بين الشاطئ والداخل. يبتعد الناس عن الشاطئ بقدر توقعهم للخطر، ليس فى أيام الموج الحصيرة، وإنما فى أيام النوات. تلامسها الأمواج فى الشتاء، تقتحمها، تتحول إلى نوات قاسية، يرتفع مستوى سطح البحر، وترتفع الأمواج، تكتسح الناحية المقابلة، تجرف ما تناثر أمام الشاطئ من الأكواخ والكبائن والبيوت الصغيرة، فى المواجهة المقابلة للشاطئ، تخلفها وراءها. ربما امتدت إلى البنايات العالية فى داخل المدينة، تعلو الأبواب وأسفل الجدران. قد تقتحم الدكاكين والطوابق الأرضية، وتهبط إلى

البدرومات. يلجأ السكان إلى الأحياء البعيدة، أو ينشغلون بمنع تأثيرات المياه، إن ثارت النوات كنست أمامها كل شيء. ربما تهدمت البيوت، وعامت قطع الأثاث فوق الأمواج.

شكل الكورنيش الحجرى مصدات تمنع الأمواج من اجتياح بيوت الصيادين فى مواجهة الشاطئ الرملى. عرف سكان البيوت فى قلب المدينة أن خطر مد الأمواج قد زال، وأن الكورنيش الحجرى يحصر المياه فى داخل المينا الشرقية. تبدلت الأوضاع، شيدت البنايات ذات الطوابق الأربعة، على امتداد نصف الدائرة المحيط بالبحر، حتى لا تحجب الرؤية من بنايات وسط المدينة، اشترطت تصاريح البناء ألا يزيد ارتفاع البيوت المطلة على البحر عن أربعة طوابق. القدرة على رؤية البحر من أى موضع مسألة مهمة، لا يقتصر أفقه على المطلين من البنايات المواجهة. سكنت فيها عائلات فرت من مد الأمواج إلى الداخل، انتقلت بيوت وأكواخ الصيادين إلى بيوت فى السيالة والأنفوشى ورأس التين، وإلى أحياء المدينة البعيدة عن البحر.

أول ما يذكره من الكورنيش، حين طلب الرجل ذو البدلة الكاملة والطربوش، وفى يده قلم الحبر ودفتر الإيصالات، على تقاضى نسبة الاثنين فى المائة، نطقها الميه اتنين. قال أبوه وهو يدفع المبلغ:

- أنشئ الكورنيش منذ سنين بعيدة.. لماذا تصرون على تحصيل هذه النسبة؟!

اكتفى الرجل بهزة رأس خالية من المعنى.

كانت فرصة الاختيار متاحة أمام أبيه لاستئجار الشقة المطلة على البحر. لم يكن التمليك قد عرف طريقه إلى الشقق. استقر على الطابق الثانى، فلا يكون فى مستوى الطريق، ولا يتعبه السلم إن تقدمت به السن، على ناصيتين، فلا تكون مخنوقة. تضاعف الإيجار - عبر السنين - لكنه ظل معقولاً.

تلاشت صورة الإسكندرية، المدينة الداخلية. تبدلت صورة البحر الذى يحيط بها، ويبتعد إلى مسافة بعيدة عن صف البنايات الممتد على طريق الكورنيش.

لم يعد الكورنيش الحجرى فاصلاً بين المينا الشرقية وامتداد البنايات أمامها. ردمت مساحة المياه، فاختفى الفاصل. هو لا يطل من الكورنيش الحجرى على المشاهد بين السلسلة وقلعة قايتباى: البلانسات، القوارب، الأمواج، صيادو السنارة والطراحة والجرافة، والمارة، والجالسون على المقاعد الرخامية، وباعة الفشار والآيس كريم.

جفت الأرض تماماً، عدا حفر متناثرة امتلأت بالأسماك الميتة. اتجهت الأسماك إلى ما بعد الشاطئ الجديد، إلى قلب البحر، ومات الكثير منها فوق الأرض المختلطة بالرمال والمياه. أهمل التصريحات التى ناقشت إن كانت الآثار الغارقة قد رفعت، أم ظلت فى أماكنها: ما شغله هى المساحة بين قلعة قايتباى والسلسلة، وعمقها فى البحر، وفى البنايات التى كانت تطل عليه، فى الصورة التى ألفها، المدينة التى ألف ملامحها، وإن تابع - من الصحف وكلام الناس، وبمشاهدة ما يحدث - عمليات التنقيب فى المينا الشرقية، الرافعات والغواصين والخرائط والقطع الأثرية داخل الأعماق، جزيرة أنتى رودس، المدينة الملكية، قصر كليوباترة ، قصر تأملات مارك أنطونيو، القصور الغارقة الأخرى، أعمدة الرخام والجرانيت ، تمثال إيزيس، وتماثيل على هيئة أبو الهول، تماثيل صغيرة من الذهب، قواعد التماثيل ذات النقوش والكتابات اليونانية، أدوات مائدة طعمت بالأحجار الثمينة، كئوس ذات زخارف نباتية، أوان محلاة بالفسيفساء، أقنعة، حلى، مباخر، شمعدانات.

غابت الملامح. لم تعد الأمكنة إلى ما ألفه الناس: البيوت بامتداد

طريق الكورنيش والكازينوهات والمحال الكبرى ومرسى القوارب والسور الحجرى بين السلسلة وقلعة قايتباى. ما كان يمثل طرف الساحل صار جزءاً من إسكندرية الداخل، هو مثل كرموز وغربال والباب الجديد والقبارى وكفر عشرى والورديان ومحرم بك، وغيرها من الأحياء فى داخل الإسكندرية.

صار من غير المتاح أن يستغرق فى مشاهدة اتساع مشهد البحر إلى نهاية الأفق. الأفق هو شاطئ البحر. ظلت أسراب الطير تحلق، وإن لاحظ اختفاء طيور النورس، يميزها من لونها الأبيض وصيحاتها.

لم يتصور تلاشى مساحة المياه، المكملة لاستدارة المدينة. صارت امتداداً لأرض المدينة. فى باله، أن خللاً ما، تحولاً ما، فرض طبيعته على المدينة كلها، الأحياء والميادين والحدائق والشوارع والأرصفة واللافتات وعلامات المرور وأسلاك الفضائيات.. الأماكن التى اعتاد الناس الحياة فيها، التنقل بينها، دون أن يحدقوا، أو يدققوا النظر. يطمئنون إلى إحساس الألفة. بدت على غير ما كانت عليه قبل أن تغيب المينا الشرقية. لا يقتصر التغير على المنطقة ما بين البحر والمنطقة المطلة عليه، لكنه يجده فى المساجد والمقاهى ودور السينما. حتى الكازينوهات التى مثلت واجهة للمدينة، قبالة البحر، تغيرت نظرته إليها. حتى الأسماء التى تشحب بملامسة البحر تبدّل شعوره أمامها.

لم تعد كل الشوارع تفضى إلى البحر. بدل اقتطاع مساحات المياه من التصرفات المألوفة والتوقعات. تصطدم نظراته بالبنايات فى المساحة البديلة، يرى البحر بالتخيل، وأنه هناك، وراء الأفق الجديد.

تناسى التحرك العفوى فى اتجاه البحر. غابت الملامح التى يدركها دون أن يراها: البنايات، التقاطعات، المفارق، إشارات المرور،

العلامات الضوئية، اللافتات، الشوارع المتقاطعة، والتى لا نهاية لها، عربات الترام والباصات والسيارات وعربات الحنطور وعربات الكارو ومحطات البنزين والباعة وزحام المارة. لم يعد الناس يتجهون إلى البحر لرؤيته. بدا البحر أفقاً غائباً ، يبعد عن مدى النظر .

بدّل سيره - كل صباح - إلى الشاطبى، والعودة. يمضى على رصيف البنايات التى كانت تطل على البحر قبل أن يبتعد. يتجه - عند ورش القزق - إلى الناحية المقابلة. يسير - بخطوات متسارعة - إلى قرب سراى رأس التين، ويعود. البحر هو ما يريد السير إلى جواره.

داخله اطمئنان أن طريق الكورنيش من الشاطبى إلى مرسى القوارب لن يفقد قيمته. كل الشوارع داخل المدينة تصب فيه. حين تشيد البنايات فى موضع ما كان المينا الشرقية، فإن الشوارع التى تتخللها ستتشكل - على نحو ما - امتداداً للشوارع المتفرعة من طريق الكورنيش.

ظهرت - فى مساحة الأرض - بنايات وميادين وشوارع وساحات وحدائق، تحيط بها، وتتوسطها، شجيرات صغيرة، مقلمة، على هيئة دوائر ومربعات ومثلثات، وممرات يغطيها الحصباء الملون. عادت الظلال بارتفاع الأسوار، وتوالى إقامة البنايات: عمارات عالية، وذات طابقين أو ثلاثة، وفيلات. تمازجت أشعة الشمس بالظلال فى الشوارع الممتدة، والمتقاطعة، وفى الزوايا والأركان.

صعد إلى سطح البيت، حاول تبين ما وراء الأسوار العالية، والأشجار الكثيفة. التقطت عيناه - بالكاد - ما يشبه الأجزاء المتناثرة من البنايات والواجهات ومساحات الخضرة، صممت الإنشاءات، وما يحيط بها، فيصعب رؤيتها حتى على قاطنى الطوابق العالية فى عمائر الكورنيش.

ترامت - عبر النافذة - نسمات باردة، تحمل رائحة ورود، تختلف عما اعتاده أنفه من اختلاط روائح الملح واليود والطحالب والأعشاب. حدس أن الرائحة الجديدة من الحدائق فى مساحة الأرض التى غطتها الإنشاءات. حاول النفاذ - بنظراته - بين ما أتيح له رؤيته من البنايات أول مساحة الأرض، يبحث عن أماكن لحدائق التى يتضوع الجو برائحة ورودها.

صار كل شيء جميلاً بما لا يتصوره، أهمل حتى السؤال عن الآثار التى كانت فى قاع البحر وهل طمرت، أم رفعت من مواضعها ؟

تحولت المدينة إلى حيين، قسمين، مدينتين ، الإسكندرية التى يعرفها، ومدينة أخرى تأتى أخبارها دون أن يتاح له رؤية الكثير مما تضمه.

يرنو من فوق السطح إلى الجهة التى اعتاد أن يشاهد منها نصف الدائرة الواسعة، ما بين السلسلة والقلعة، تراوح حركة الموج بين الهياج والحصيرة. اختلف ما ألف مشاهدته. أفق البحر إلى حيث تغيب الرؤية. إلى اليسار خليج الأنفوشى، حافته ورش القزق، وتتناثر فى مساحته بلانسات وقوارب صغيرة، تنتهى إلى الجزيرة الصغيرة الصخرية، وانحناءة الطريق إلى سراى رأس التين. تتحول نظراته - بالتعود - إلى الميناء الغربية، البواخر الضخمة والأرصفة والمخازن وشون الغلال والرافعات وبلوطات الأخشاب والأجولة وأحياء الإسكندرية البعيدة. يشاهد الإعلانات المتوهجة بأنوار النيون فوق البنايات العالية بميدان محطة الرمل، آخر رؤيتها مئذنة القائد إبراهيم، وتصاعد قضبان المترو إلى مناطق الرمل.

لم يعد هذا هو المشهد الذى كان يتوقعه فى صعوده إلى السطح. كسرته الأبنية والإنشاءات فى موضع المينا الشرقية. اهتزت الصورة، وربما تغيرت تماماً. حلت مشاهد لم يسبق له رؤيتها. عرفها من الرؤية المباشرة، ومن كتابات الصحف، وبرامج الإذاعات

وقنوات التليفزيون، ومن روايات الذين أتيح لهم أن يترددوا على المساحة الجديدة، الهائلة، المدينة التى بدأت ملامحها فى الظهور، مدينة كاملة لها مرافقها وبناياتها ومساجدها وحدائقها وملاعبها وملاهيها، وقضبان الترام، ومحطات البنزين، والنافورات، والأسبلة الرخامية. حتى الشرطة صار لها مبناها المستقل - روى أنه أضخم ما فى المدينة - تحفظ النظام وأمن السكان، بما تضمه من أجهزة حديثة.

تبدو صورة ما سيحدث فى امتداد المدينة شاحبة، أو مشوشة.

أيقظه الضابط من ذهوله:

- لكى تدخل فلابد من تصريح!

التفت إلى الواقفين جواره.

ظلوا على سكونهم وصمتهم، وإن لاحظ فى الأعين نظرات أقرب إلى الشرود، أو إلى الأسى، وثمة سحب متكاثفة إلى نهاية الأفق، غطت السماء برمادية شاحبة، ووشت بأمطار قريبة.

أعوزته الكلمات التى يعبر بها عما يعانيه، فسكت. أزمع - بينه وبين نفسه - أن يغلق فمه، خشى - إذا حرك شفتيه - أن يقول ما يجر عليه مشكلات لا يريدها.

قبل أن يعود، قال الضابط كالمتنبه:

- ما يدرينا أنك تطلب الدخول لفعل إجرامى؟

وعلا صوته بنبرة مهددة:

- حتى لو اضطررت للعودة فلابد من تفتيشك.

وأشار إلى الجنود بتعبيرات تعكس المعنى.

أحاط به الجنود. أخرجوا كل ما فى ثوبه، قلّبوه، تشمموه، تحسسوا أجزاء جسده.

حين علا صوته بالغضب لمحاولة مد أيديهم فى ثقوب جسده، هز الضباط يده دلالة إنهاء التفتيش.

ظلت نظراته ثابتة إلى البوابة المزدحمة بالجنود، وبالبنايات الممتدة وراءها، وهو يغالب التعثر والحزن، فى خطواته المتجهة إلى داخل المدينة.

الإبانة عن واقعة

كنز الشيخ المغربى

نفى أن يكون قد قطع المسافة بين بلاد المغرب والإسكندرية ماشياً. ظلت دابته على عافيتها، حتى أوصلته إلى بدايات الإسكندرية

وصل إلى الإسكندرية فى اللحظات التالية لغبشة الفجر، عندما كانت المدينة تستفيق من نومها.

قال إنه ترك بلدته فى المغرب فى بداية فصل الشتاء، وطالعته مشارف الإسكندرية فى بداية فصل الصيف.

اجتذبه الخلاء الممتد إلى شاطئ البحر. خلّف متعلقاته حيث وضعها على الأرض. سار كمن يتجه نحو البحر، لكنه لم يقصد مكاناً محدداً.

الإسكندرية هى أولى المدن المصرية قدم إليها، وإلى مصر كلها. شالته مدن، وحطته مدن ،الأرض فرشته، والسماء غطاؤه، حتى استقر به المقام فى مدخل المدينة، فى المنطقة ما بين الميناءين الشرقى والغربى.

أبرز ما يميزه، قامة طويلة، وعينان بنيتان، ملتمعتان، وذقن مسدلة، ووجه مستدير، تخالط سمرته حمرة، ربما بتأثير حرارة الشمس فى رحلته الطويلة، يضع على كتفيه عباءة مغربية، ويثبت فوق رأسه عمامة هائلة، أجاد تدويرها، ويتدلى من عنقه سبحة طويلة من حبات الكهرمان، ودس قدميه فى خف أصفر.

نفى أن يكون قد قطع المسافة بين بلاد المغرب والإسكندرية ماشياً. ظلت دابته على عافيتها، حتى أوصلته إلى بدايات الإسكندرية، فأسقطها الموت. لم يتحدث عن ناسه، ولا من أين أتى، وإن حدسنا أنه واحد من أقطاب الصوفية الذين يسعون فى الأرض، يهمسون بالإشارات والإيماءات والتوقعات والحياة المغايرة. قد لا يعرفهم الناس، لكنهم يعرفون ما يحتاجه الناس.

وهو يزفر فى تسليم :

- سرت ما استعصى علىّ عدّه، قطعت الصحارى، واخترقت المدن والقرى، ولجأت إلى أى موضع أريح فيه بدنى.

كان فى طريقه إلى الحج. ينوى مواصلة السير إلى مكة والمدينة. عهد قطعه على نفسه. قال إن أمنية عمره أن يواصل السير إلى البيت الحرام، يقضى الأوقات مجاوراً للكعبة حتى يأخذه الله فى رحابه.

ألف الناس قدوم العشرات من الأولياء والعارفين بالله، يقطعون

المسافة من بلاد المغرب إلى أرض الحجاز، سيراً، أو على ظهور الدواب. لأن هؤلاء الصالحين يأتون من مدن تطل على البحر، فإنهم قد يفضلون المدن الموازية للساحل. أولياء الله الذين استوطنوا الإسكندرية، قدموا إليها من مدن تلاصق البحر، تظهر لهم ـ أول قدومهم ـ مكاشفات وكرامات، يلح أهل المدينة فلا يواصلون الرحلة، يبنى لهم الناس جوامع وزوايا، ويؤلفون طرقاً ينسبونها إليهم ، وتبنى لهم ـ بعد الانتقال إلى قرب المقام الإلهى ـ أضرحة ومقامات، يفد إليها طالبو النصفة والشفاعة والمدد .

رفض ما عرضه عامة الناس أن يقيم فى فندق، وما عرضه العديد من الوجهاء أن ينزل فى ضيافتهم. فضل لاعتكافه ـ بمساعدة رجال أنس إليهم ـ أن يبنى خيمة فى موضع مقابل لساحل البحر. عاونه الرجال على تزويد الخيمة بالضرورى والمتاح، وما لا يصرفه عن تأملاته وواجباته الدينية.

الخيمة تطل على البحر من ناحية الشمال، لا يغادرها إلا ليؤم من لزموا جواره فى الصلوات الخمس، أو يعظهم بعباراته الغامضة قبل أن يؤم صلاة الجمعة. ربما مضى لتبين أحوال الناس، وشراء ما يلزمه من الأسواق. لم يطلب صداقة، وإن ألح الناس فى بذل صداقاتهم، وكل ما يملكون من ود. لاحظوا ميله إلى التمشى على الشريط الذى يمتزج فيه مد الموج وجزره ورمال الشاطئ.

لاحقته عيونهم فى سيره المتباطئ بين الخيمة الصغيرة وشاطئ البحر، يقلدونه فى حركات الوضوء، وفى القراءات، والتسبيحات، حتى ما ألفوه يهملونه، ويفعلون مثل فعله. إذا انتقل من موضع إلى آخر حول المكان، مشى الناس ـ متبركين ـ أمامه وحوله.

طال جلوس الناس إليه، يناقشهم فى أمور دينهم ودنياهم، ما يتصل بمعاشهم وبالحياة الآخرة، الباقية. يختار لأحاديثه أبسط الكلمات والعبارات، ويستعيد ما يقوله من أفواههم، أن يكونوا لم يفهموا، أو أخطأوا الفهم.

امتدت أيامه، فحدس الناس أن الشيخ لن يكتفى بالزيارة، يقضى أياماً بينهم، ثم يمضى إلى مواضع يقصدها : جامعاً، أو ضريح ولى، أو

مقاماً. توضح اعتزامه الإقامة فى حرصه على الصداقة، والمناقشات، وشراء ما يلزم لإقامة طويلة.

لما زاره والى الإسكندرية، أسدلا عليهما باب الخيمة، عاش الناس فى القلق، لكن الوالى غادر الخيمة - بعد حوالى الساعتين - يتبعه الشيخ. سارا - متجاورين - إلى حيث يقف جند الوالى وركائبه. سلم عليه الشيخ، عانقه كما يتعانق الصديقان، ظل الشيخ يرقب ابتعاد الموكب حتى غيبه الأفق.

اجتمع عليه المريدون من بحرى، وأحياء الإسكندرية الأخرى. أدركوا أنه قطع مراحل الطريق، فعلت مرتبته فيه. أذاعوا عنه الكرامات والخوارق والمعجزات، قدموا له ما يصعب حصره من الهدايا والنذور.

انتشر له من الذكر ما لم يتحقق لأحد من أولياء الله من قبل.

لم يظهر الناس ضيقاً، حين عاب عليهم أنهم يذمون الدنيا فى كلامهم، ويقبلون عليها بما لا يخفى. يأكلون من خيرات الله، ولا يشكرون صاحب الفضل والمنة. يحبون ما كرهه الله، وينشغلون بما يصرفهم عن عبر الدنيا. لا يطيعون الخالق، ولا يحفظون القرآن والسنة، ولا يعملون بهما. كرر تحذيره لهم من مقامع الحديد فى الآخرة، يهوى بها الملائكة الغلاظ الشداد، الإحراق بالنار ظاهراً وباطناً، لسع الحيات الهائلة كالجمال، لدغة العقارب الضخمة كالبغال.

تقلصت ملامحه بالأسى:

- نحن نكثر من الكلام عن الموت، ولا نعد أنفسنا له!

عرف مريدوه أنه بلغ فى المجاهدة والمشاهدة ما لم يبلغه أى من أقطاب الصوفية. يمتلك قوة هائلة لا تضاهيها قوة أخرى، يحيل ماء البحر المالح إلى ماء عذب، يشفى الأيدى والسيقان المشلولة، يزيل الأمراض بلمسة من يده، يقيم الأموات من رقدتهم.

واتاه الله قدرة هائلة على معرفة ما كان، وما سيكون، بإذن الله تعالى، يستعيد ما جرى فى الماضى، ويستشرف التوقعات. يتحدث عن أشياء يجهلونها، يستقبلون من يؤكد صحة الروايات.

رفض أن يثبت ، أو ينفى ، ما رواه مريدون أنه يؤدى صلوات اليوم الواحد ما بين البيت الحرام ، والروضة الشريفة ، وجوامع الأزهر

والقرويين والأمويين ، وإن أنكر كل ما نسبه الناس إليه من خوارق ومعجزات ، إنما هى كلمات قالها عفو الخاطر ، أملتها قراءات ومعارف وخبرات ، أراد بها أن يخدم الناس ، فساعده الله عليها . رفض حتى أن يقام له مولد سنوى باسمه ، ذلك شأن الأقطاب .

مال الناس إلى التأسى به، والجرى على سنته، واقتفاء خطوه، ومحاكاته فى مظهره ومشيه وقعوده وحركاته وسكناته وأقواله وتصرفاته، حتى فى نبرات صوته، والمفردات التى تأتى على لسانه. يقلدونه فى حياته قدر طاقتهم، يستمسكون بما يرون أنه أخلاقه.

لم يكن الوعاء الذى يشرب منه يمتلئ حتى يفرغ، تناقل مريدوه أن من يروى عطشه بما فى الوعاء، حصّن نفسه ضد الأذى والشر، واكتسب بعض ما فى الشيخ من قدرات.

ظلت الجلسات فى اقتصارها على العظات المتدبرة لأحوال الدنيا والآخرة، حتى التقط مريد - صار المريدون كثرة - قول الشيخ فى سياق كلماته:

- لو أننا عثرنا على الكنز المطمور فى هذه الأرض، فستُحل مشكلات كثيرة.

قاطع المريد اتصال الكلمات:

- أى أرض؟

- الأرض التى نجلس فوقها.

مسح مريد عجوز ذقنه فى هيئة العارف:

- لهذا رفضت أن تنزل فى فندق أو فى ضيافة الوجهاء.

قال الشيخ:

- الحياة الباقية تشغلنى عن الحياة الفانية.

صمت عن إبلاغهم بالمدة التى ظل فيها الكنز محفوظاً فى باطن الأرض، دون أن يعرف أحد، أو تجرى عمليات حفر للعثور عليه.

أزاح عمامته إلى الوراء ، ومسح العرق المتفصد فى جبهته:

- أعرف بالكنز، لكن أمره لا يهمنى.

علا صوت المريد :

- لكنه يهمنا، قلت بعظمة لسانك إنه يحل مشكلاتنا .

اختلطت الأصوات، تعيب على المريد ارتفاع صوته، وحدة نبرته، فى حضرة الشيخ . تداخلت ـ من بعدها ـ الملاحظات والتعليقات والأسئلة، وإن اجتذب الانتباه صوت أجش، عميق :

ـ لماذا لا ترشدنا إلى موضع الكنز، وتترك لنا أمر العثور عليه؟!

اتجهت الأعين إلى الشيخ، تطلب إيماءة الموافقة.

طال صمت الشيخ واستغراقه، ثم رفع رأسه، وقال :

ـ ما أعرفه أن الكنز فى هذه المنطقة القريبة من ساحل البحر.

ثم وهو يدلك المسبحة المتكورة فى راحته:

ـ ابحثوا بأنفسكم، أبذل ما أعرفه، وتبذلون وقتكم، وقتى لله وحده!

لم يعلن عن الجهة التى أخبرته بالكنز، ولا أشار إليها، ومن طمره فى هذا الموضع، وإن بدا على ثقة مما قال. جاوز الاسم إلى تفصيلات تتصل بالمكان، وما يضمه الكنز من الذهب والأحجار الكريمة والأموال، ونفائس لا توجد فى غير الجنة. نفى أن يكون الكنز فى حاجة إلى تعازيم، أو كلمات سحرية، أو أرقام لفك الطلسمات.

تبدل الحال فى الآونة التالية. علت الفئوس فى أيدى المريدين، هوت على أى موضع يظن رخاوته، وعلى أسفل الأشجار الصحراوية القليلة، المتناثرة. سيطر على الجميع حلم العثور على الكنز، العثور على ما تيقنوا ـ بتيقن الشيخ ـ من وجوده.

حين تواصل الإخفاق فى ارتطام الفئوس بالجسم الصلب، بشارة بالكنز، تعددت التفسيرات بين ما إن كان فى الأرض طلسم ينبغى فك رموزه، أو أن ذبح ضحية قد يتيح ظهور ما غمض، أو ربما يحتاج بوح الكنز بسره تلاوات قرآنية وتسبيحات وأدعية.

بدا الشيخ وحيداً فى خيمته، يؤذن للصلاة، ويؤديها بمفرده، يخلو إلى أوراقه، وأوراده، وحبات مسبحته، وتأملاته ، يكثر من التلاوة والذكر والتسبيح والاستغفار، وسائر ما يتعلق بالعبادة.

نفض نفسه من البيع والشراء، واختار العزلة فى خيمته معظم ساعات يومه، يصلى، ويذكر، ويتأمل. انفرد عن الخلق فى الخلوة والعبادة، يستشعر مراقبة الله، فلا يراه على ما لا يحيد عنه، يشرب كئوس القرب، ويسبح فى بحار التجليات.

قطع العلائق التى تحول بينه وبين ما يريده، ما يسعى إليه، استغنى عن جميع الموجودات، واتجه إلى الله بالكلية. ألقى بنفسه فى أنواع المجاهدة والمشاهدة والرياضة بالصوم والقيام والسهر ودوام الخلوة. عيناه تبصران الذات الإلهية، فلا ترى سواها. انشغل بالعبادة، والتبرؤ من الأغيار والمعوقات، يحفظ أعضاءه عن كل ما يغضب الله، لا يفسد طهارته سوى قضاء الحاجة، ولا يفرغ من الصلاة أياماً متوالية، ولا يأكل، ولا ينام ، ويؤدى كل صلاة على أنها آخر صلاة له، يتحدث عن الطريقة والحقيقة، يخاف أن يخطو خطوة، أو يجرى كلام على لسانه، مما لا يرضاه الله سبحانه، وجد فى نصرته - سبحانه - عوضاً عن كل شيء، يحفظ نفسه فى المجاهدة والمكاشفة، يمضى الأيام طاوياً، لا يذوق إلا الماء القراح، يطرح السجادة فى كل موعد صلاة، فيؤدى أركانها، يستقبل القبلة، فيصرف نظره عن كل شيء، يديم النظرات إلى الحق وحده، ويرجع إليه فى أمور كثيرة، ويطلب المدد فى كل الأحوال.

ظل على زهده فى الدنيا، ورفض الخوض فى غمارها، وعدم الالتفات إلى ما قد يحجب اليقين، ومراقبة الله تعالى. لم يعد للدنيا مكان فى داخله، خاصمها، فلا يكون قلبه مفرقاً بين الله وبينها. إله العالمين لا حاجة به إلى أهل الدنيا الذين شغلهم زخرفها وزينتها، وخرجوا عن حفظ العهد، وطاعة الشيخ.

عقل جوارحه عن كل شيء، جعل قلبه فازعاً عن الجميع. فرغه عما سوى الله، استشعر مراقبته فى خواطره وأقواله وتصرفاته، استحضر علمه المحيط، تمثل قدرته، تطلع إلى عطائه وفضله، انغلق على نفسه بالعزوف عن النقاش، وإهمال ما يوجه إليه من أسئلة.

صار الكنز هماً للناس، فهم مشغولون بالبحث عنه، يفردون الأوراق والخرائط، ويتبادلون المعلومات. لما أخفقت المحاولات، واستعصى الأمل فى الوصول إلى ما يشى بالكنز، ساورهم الشك إن كان العثور عليه يرتبط بطلسم هو المدخل إليه.

كان الشيخ قد اكتفى بنبأ وجوده، لم يتحدث عن الظروف التى تحيط

به، ولا إن احتاج الوصول إليه أدعية وتعازيم. وثمة من أبدى تخوفه من أن تقترن ملامسة الكنز بعضة ثعبان لطرد من تسول له نفسه أن يأخذ ما فيه.

عاب الشيخ على الناس جنوحهم إلى مخالطة الدنيا بما يرضى الشيطان، وإغفال المجاهدة والتقوى والإشارات والكلمات. أخذ عليهم أنهم لم يستوعبوا فيوض الأنوار، فأغمضوا أعينهم، وانفصلوا عما حولهم. حث على ترك الدنيا والشهوات والذنوب، والإكثار من قراءة القرآن، وتلاوة الأدعية والأذكار، والانشغال بذكر الله وطاعته، والتقرب إليه بالزهد والورع ومجاهدة النفس وأفعال الإيمان.

غرق غالب الناس فى البحث عن الكنز فى مساحات الرمال التى تحولت إلى كومات متلاصقة. ثمة من هزمهم اليأس، فغادروا إلى مدنهم وقراهم، وثمة من وجدوا راحة النفس فى العودة إلى خيمة الشيخ، يجلسون بالقرب من مجلسه، ينتظرون إمامته للصلاة وعظاته ودعواته.

بدّل الصورة تماماً، وعكس المعانى، قدوم مئات الجنود، يبعدون الناس عن المكان جميعاً، لا حفر، ولا تنقيب، ولا استكانة إلى خيمة الشيخ.

حين اطمأن الجند إلى خلو المكان من الناس، بدأوا فى تقويض الخيمة، وإلقاء ما بها من ضرورات وأوراق ومخطوطات وخرائط فى الفضاء الفسيح.

تهيأ الشيخ - فى موضعه داخل الخيمة المتهدمة - لمرافقة الجند إلى وجهة يعلمونها، ولا يعلمها.

كان صوت قائد الجند قد علا بكلمات فى رقعة، تعيب على الشيخ أنه أخل بموافقة السلطان على أن يلزم هذا المكان، يلتقى الناس ، يعظهم ويدعو لهم. أخذت عليه الكلمات إفساد الناس، وتبشيرهم بما ليس فى الدنيا، وإغلاق نوافذ التطلع إلى نعيم الآخرة.

زاوية العميان

ران على صـوت الشـيخ ذبول لتعالى الأصوات، تثنى على ما قاله زناتى شريدة. هل خـرج المجـاورون عن طاعته؟

حين تناهى الصوت الذى لم نكن سمعناه من قبل، ولا تعرفنا إلى صاحبه، أدركنا أن شيخنا الدواخلى فارق الزاوية، وأن شيخاً جديداً - مبصراً هذه المرة - سيتولى أمرنا. تبادلنا اللكزات والقرصات، رد فعل للصوت المحمّل بالتهديد :

- أنا شيخكم الجديد. إذا كان الشيخ الدواخلى قد أوذى لفقد بصره، فلن يتكرر ما حدث مع شيخ يتمتع بنعمة البصر!

كانت الأجساد المتلاصقة قد اهتزت بالمفاجأة، وأرهفت الآذان أسماعها، تتبين ما قاله صوت مجاهد الشربينى، وما إن كان الشيخ الدواخلى على دكته، أم أنه غادر المكان.

لماذا التقييد والضرب بالكرباج؟ لماذا لا يطبق الشيخ نظام التأديب إذا خرج مجاور عن أعراف الرواق؟

الأذن هى البديل للعين، وهى التى تملى على الفم ما ينطقه، يستغنى الذهن عن الإملاء على اليد، الصوت فى الزاوية هو السيد، هو الصديق والعدو والطيب والمتآمر والمتشكك، نلتقط البسمة والضحكة ورنة السخرية والتشفى والإعجاب والخوف، وغيرها مما لا تراه عيوننا، يقتصر تمييزنا للأشياء على ما نسمعه، نعرف الأوقات من الأصوات بين كل صلاة: الأذان، تلاوة القرآن، دروس الشيخ الدواخلى، قراءة الأوراد، جلسات السمر، أدوار الشاى، نتبين معنى الصوت فى النبرة، وطريقة النطق، الميل إلى الخفوت أو الارتفاع، سرعة الكلمات أو بطئها، نفطن إلى الحال من نبرة الصوت، إن كان المتحدث فى حال الحزن أو الفرحة، يصدق فى كلماته، أم ينطق عكس ما فى داخله. نحاول تصور حتى طريقة التصرف أثناء نطق الكلمات، إن كان المرء منفعلاً أم يميل إلى المباسطة؟ هل يعكس الود، أم يبطن مشاعر كارهة؟

الأذن هى الحاسة التى نستقبل بها كلمات الشيخ الدواخلى،

نتدبرها، ننقلها إلى أفهامنا وقلوبنا، فتستريح إليها، قدرنا ميله إلى العزلة والصمت والتفكير والاعتبار والتهجد وقيام الليل والخلوة والمشاهدة والذكر، وأنه سكن إلى الله، فاكتفى به، نصغى إلى وقع قدميه، نحرص أن نتبع خطواته، ولا نسبقه. إن لم يفطن أحدنا، أعادته إلى الوراء لكزة، فلا يجاوز الشيخ فى مشيته. ملامسات الأيدى هى البديل - فى أحيان كثيرة - للأعين التى فقدت البصر.

ازداد حبنا للشيخ، وإقبالنا على سماع أقواله، وعظاته، ونصائحه، وتحذيراته، وامتثال أوامره، وتلبية إشاراته. رتب لنا أوراداً وأذكاراً، لا نبدلها، ولا نهملها، ولا نخطئ فى مفرداتها.

تزايدت أعداد الطلاب، أكثر من ثلاثمائة، امتلأت بهم الحجرات الثلاث أعلى الزاوية، وتناثر الباقون تحت أعمدة الأزهر، وفى أركانه ولصق جدرانه، يحرصون على التعلق بأخلاق الشيخ وأقواله وتصرفاته، والتأسى به فى سائر الظروف والأحوال.

غاب شرط نسبة المجاورين، كل مجموعة إلى البلد الذى ينتمون إليه. لنا زاويتنا المستقلة، زاوية العميان، طلبتها من فاقدى البصر. المخصصات تضمن إعاشتنا الكاملة، الإقامة والطعام والكسوة والجرايات والرواتب. وثمة المجاور إبراهيم الناصر - وهو مبصر - عهد إليه الشيخ بتوزيع الجراية، وكتابة الحضور والغياب، وغير ذلك مما ينظم العمل بين مجاورى الرواق .

الزاوية للعميان، بديهى أن تقتصر عليهم، وأن يتوجه إليهم الشيخ بدروسه وعظاته. رفض الشيخ أن يأذن لنا بالتردد على الأروقة الأخرى، نمر بها فلا نقيم، لا نجالس الطلبة الوافدين من الشام والمغرب وبلاد الإسلام، يشفق من الأفكار التى قد يحملها هؤلاء الطلبة، تخالف ما نتعلمه .

اتجه إلى المجاور متولى عبد القوى بما يشبه الصراخ، لما حدثه أعوانه عن تردد عبد القوى على رواق المغاربة، من يدرى أنك لن

تتأثر بما قد يحمله هؤلاء الناس من أفكار غير مقبولة ؟!

فقد البصر جعل من الكلام - وحده - وسيلة غير مأمونة، ومحفوفة بالمكاره، تلتقط الأذن - التى لم نر صاحبها - ما نحرص أن يكون مخفيا ، فتنقله إلى الشيخ، نواجه التسخيف والشتم، وربما الطرد من الرواق، نعرف حالة الشيخ المزاجية من نبرة الصوت، زاعقة أو مرتفعة أو هامسة. نتكلم بما يناسب المقام، أو نصمت.

لم نكن نعرف إن كان أعوان الشيخ يجلسون - أو يقفون - بيننا، حتى الهمس بدا صعباً، لجأنا إلى وسائل أخرى تعوض الكلمات وتعبيرات الوجوه والأيدى، نلامس الأجساد بما يوضح المعنى، أو ننقر عليها، أو نقرص الأذن للتنبيه، أو نجذب القفطان بما وسعنا. نحاول بالملامسات - وتشمم الروائح كذلك - تعويض نظرات الأعين وما تراه.

كنا منقطعين لطلب العلم، تصنع أجسادنا حلقة حول دكة الشيخ الدواخلى، نتلو القرآن بالقراءات السبع، نقرأ الأحاديث النبوية والتفاسير والأوراد ودلائل الخيرات، نتطلع إلى منازل العبودية وفراديس الرضوان.

ربما ترددنا - فى غيبة الشيخ - على الأروقة الأخرى، فرادى، أو يقودنا مبصرون من غير أعوانه. تتجاور الأروقة، يتزاحم المجاورون، يتحابون فى الله، يتفرغون لطلب العلم.

رواق الزاوية أربعة أعمدة من الرخام، لها قبلة، وميضأة، وثلاثة عشر مرحاضاً، فوقها ثلاث حجرات لا يسكنها غيرنا. الموقع فى الجانب الثانى من الحارة، خارج المدرسة الجوهرية، بينهما ممر من الحجر، نمضى من خلاله إلى الميضأة، نتوضأ ونعود، أو نواصل السير إلى صحن الجامع لأداء الصلاة. نخترق الحارات الموصلة بين الرواق وصحن الجامع ومقصورته. قد نمضى إلى الشوارع المحيطة بالجامع، نشترى حوائجنا ونعود. أعمل مجاهد الشربينى الحيلة، فوجد من يقوده إلى مقابر الدراسة وباب الوزير، يتقاسمان

ما يتصدق به أهل الموتى بتلاوة القرآن فى أحواش المقابر، يملأ مخلته بالقراقيش والمنين والقرص.

كان ثلاثة من المبصرين يقرأون ما نطلب الاطلاع عليه، يأخذون الكتب من الخزانة الخشبية الهائلة، لصق الجدار الأيمن للرواق، يعرضون عناوناتها على المجاورين، فيشيرون بالقراءة، أو يقترحون اسماء، يبحث الطالب عنها فى صفوف الكتب. تختلط الأصوات فى رواق الحنابلة المجاور بالأسئلة والمناقشات والآراء، تذهب إلى ابعد مما تبلغه اجتهاداتنا.

تعلمنا على يدى الشيخ الدواخلى معانى الوجود والمعرفة والمحبة والعشق والذكر والصحبة والأخوة والصمت والجذب والتمكين والاتحاد والوحدة والفناء والسكر والصحو. تعرفنا إلى الإشارات والأحوال والاصطلاحات والأذواق والمقامات والمراتب والمنازل والمواهب والكرامات والمكاشفات، اقتصرت حياتنا على الرياضة والمجاهدة والخلوة والمشاهدة والذكر، عمق اطمئناننا إلى الزهد والخشوع والخوف والخشية والفقر والزهد والشكر والتوكل والرضا، وحب الموت.

إذا ترك الشيخ الرواق، فليصعد إلى الخلوة التى جعلها لنفسه فوق سطح الجامع، يصلى ويذكر ويقرأ ويتأمل، يصابر نفسه، ويجاهدها، ربما أمضى ليلتين أو ثلاثاً بلا نوم، تستغرقه تلاوة القرآن والأدعية والتهدجات وقراءة كتب الدين وتأمل الأحوال، يغلبه الوجد فيغيب عن نفسه، تأخذه الجذبة فى عبادة الجلالة، فينطق لغة لا يفهمها غير مريديه من الذين أتيحت لهم نعمة البصر، يفسرون مفرداتها ومعانيها، ويعملون فى ضوء ما بلغوه من تفسيرات، وإن عرفنا أنه ترك ما لا يعنيه، وننتظر مكاشفته لنا - حين يعود - بأشياء وقعت، أو تلوح فى مدى توقعاتنا.

لم نكن رأينا الشيخ الدواخلى، فحاولنا تخيله، كل منا بقدر ما يواتيه خياله. اختلفت الملامح - فى تعدد الأخيلة - فلا تستقر على

هيئة ما، تخميناتنا تختلف حول ما إذا كان الشيخ أميل إلى القصر أم الطول، إلى الامتلاء أم النحافة. نعوض ما لا نراه بتصور الملامح، قد تختلف البنية فى تعدد التصورات. إجماعنا أنه يحرص على الجدية فى كلماته وتصرفاته، ونطمئن إلى رأيه بأن تلاوة القرآن هى ساعة ترويح القلوب.

لاحظ الشيخ - عقب إجابات مرتبكة، أو غير وافية. ضعفنا عن الطاعات، وتقصيرنا عن الفرائض. هدد بأننا إن لم نوافقه، فسيخوض بحر المعانى الحقيقية بمفرده.

أزمع إعادة تقليد قديم، كان قد أهمله، ونسيه المجاورون. يأمر الشيخ أعوانه المبصرين، يقتادون الطالب الذى أهمل مجاهدة النفس، وتصفية القلب، وقطع العلائق المادية، ونبذ الدنيا، ومعاينة الآخرة. يضعونه فى ساحة المولد، يعرون أعلى ظهره، ويحيطونه بالقيود، يضع أحدهم سوطاً فى يد الشيخ، يكرر به الضربات على ظهر الطالب، لا يبدى تأثراً لتوسلات الطالب وصرخاته، لا يأبه حتى بتأسف المجاورين واستيائهم.

أضاف الشيخ ضربات السوط إلى دروسه وعظاته.

بدأ ما حدث بتساؤل هامس. تلت - بالهمس نفسه - كلمات معترضة، أصاخ لها أحد المجاورين سمعه، نقلها إلى مجاور يلاصقه، أدركوا المعنى، وما يجب فعله.

قال مجاور ذو لكنة صعيدية:

- أمر الله بالموعظة الحسنة لا بالضرب.

ورفع صوته ، ربما ليدفع الشيخ للإنصات:

- أنت تملك الكثير من حظوظ الآخرة.

وتخللت النبرات ما لم نعهده من السخط:

- ألا تستطيع أن تدعو لنا فيشملنا الله بواسع رحمته؟

وشى الصوت بغضب لم نألفه فى حضرة شيخنا الدواخلى. الشيخ

وحده هو الذى يغضب، ويرضى، ويعاقب، ويعفو عن أخطاء المريدين.

لم يكن أحدنا يقوى على الشكوى، أو الاعتراض، أو رفع صوته لأى سبب. إرادة الشيخ لا راد لها، إلا أن تكون إرادة الله، هو يقضى بأحكام الله.

كانت الهمسات قد علت، وعبّرت الملامسات، عن حرص الشيخ على إخضاعنا لأوامره، لا أسباب تدعو إلى تلاحق الأوامر والتحذيرات، والتهديد بالعقاب السماوى.

هل طلعت الشمس من الغرب؟ هل اختفى حساب الملكين والصراط والثواب والعقاب؟ هل الحياة الآخرة وهم ، والعدم نهاية الجميع؟

أصاخت الآذان إلى مصدر الصوت.

لفقد أبصارنا، لم نشاهد المتكلم، وإن تبينا من نبرات الصوت أنه لزناتى شريدة، تعرفنا إليه من قبل فى تلاوة آيات القرآن وقراءة الأوراد والأدعية، والتحدث عما يعرفه من التعاليم الجوانية .

لاحظنا، منذ التحاقنا بالرواق - فقد سبقنا إليه - أنه يكثر من الأسئلة، وإبداء الملاحظات، ومناقشة الشيخ - أحياناً - فيما يراه خطأ، أو ظلماً للمجاورين. وكان يعتز بحفظ القرآن كله، وقراءة صحيح البخارى، وحفظ الكثير من الأحاديث، ومعرفة دقائق التفسير، وحفظ الألفية فلا يخطئ فى اللغة.

تصورت الشيخ يرهف سمعه، يتجه برأسه إلى سقف الزاوية، يتوقع ثورة المجاورين على قول زناتى.

ظل الصمت سادراً، إلا من هديل حمامة على نافذة الزاوية.

ران على صوت الشيخ ذبول لتعالى الأصوات، تثنى على ما قاله زناتى شريدة. هل خرج المجاورون عن طاعته؟

تعلمنا أن الطاعة هى جسر العلاقة بين الشيخ ومريديه، ليس من واجب المريد، ولا من حقه، أن يسأل، أو يعتذر، عليه أن يكون مطيعاً. الطاعة ثواب يجزى عليه يوم القيامة. التسليم ضرورة بما يراه الشيخ، هو ينصح، ويحذر، ويأمر، ويطلب. نحن نصغى جيداً، ونلبى أوامره وطلباته. سلطة الشيخ مطلقة، ترفض المناقشة

والمراجعة. المريد - مثل النبى موسى فى صحبة الخضر - يرى ويتعلم، فقط يرى ويتعلم، لا شأن له بما قبل ذلك ولا بعده.

ران ارتباك على كلمات الشيخ، بدت متقطعة ممدودة:

- أريد أن أطهر نفوسكم فلا يعلق بها إلا محبة الله.

قال زناتى شريدة بلكنته الصعيدية:

- إنها نفسك الشريرة ، تملى عليك أذيتنا!

تطورت الأمور إلى ما لم يخطر ببال الشيخ، ولا المجاورين، ولا القلة من المبصرين الذين جعلهم فى خدمته. عرفت أقدام طريقها إلى موضع الشيخ على دكته، اختلط ارتطام الأجساد، وأصوات المجاورين بصيحات الشيخ: لا تقيدنى يا ولد.. لا تضربنى يا ولد، وتوسلات أعوانه تنفى أن يكون لهم دخل فيما حدث.

أدركنا ما حدث حين قال الشيخ:

- هات العصا يا ولد!

عرفنا أن أحدنا اختطف العصا من يده. ندت آهة، فعرفنا أن الشيخ يتألم. تعالى صوته بكلمات متقطعة، فحدسنا استغاثته. استحال صياح الشيخ صراخاً، يتخلله صوت زناتى فى لهجة باترة:

- تضربنا لنطهر أنفسنا.. لماذا ترفض أن نساعدك على التطهر؟!

تشابك الصراخ والأنين والنشيج والصيحات والنداءات، أدركنا أن الضربات جاوزت الشيخ إلى أعوانه.

ظللنا فى أماكننا، نتابع اختلاط ضربات السوط وصرخات الشيخ وتوسلات الأعوان وثورة المجاورين وصيحات لمة الناس.

لم نلحظ حتى تعالى الأذان من مئذنة الأزهر.

سقوط اعتبار الوسائط

العلم تكنسه الأيام كما تكنس الريح مزق الأوراق، ما لم يصدر عن نفس تقية، ويتلقاه ذهن يحرص على المعرفة، النبتة الجيدة تلزمها تربة صالحة للزراعة.

أحطتنى بمشاعر لا أقوى على مغالبتها. أحتاج إليك بالفعل لكننى لم أعد أطيق هذا الاحتياج. ربما الكراهية هى شعورى.

البداية حين جلست إليك، تعمدت أن تخلو الحضرة تماماً. كان عم عرابى - خادم المسجد - قد أطفأ الأنوار، وبدأ فى إغلاق الأبواب، عدا ضوء شاحب من باب غرفته الصغيرة، أسفل المنبر.

تعددت التسميات التى أطلقت عليك، وقادتنى إلى مجلسك: الشيخ، الإمام، الولى، العارف، المرشد، الكبير. كنت أعرف جيداً تدرجك فى مراتب التصوف، حتى فتح الله عليك بمنزلة مرموقة، تتفوق بها على بقية البشر، إلا الذين خصوا بالولاية. النبتة لا تصبح شجرة إلا إذا تعهدتها يد بالرى والرعاية، شيخ يوضح له ما خفى من قضايا الشرع. يجلس المريد إلى الشيخ، ينصت لنصائحه، وتوجيهاته، ويقتدى به. يتبعه فى أولى الخطوات، قبل أن يأذن له الشيخ بطريقه المستقلة.

حدثنى أتباعك ومريدوك بما كان غائباً من مكاشفاتك ومحامدك، خصك الله - تعالى - بالأسرار والعلوم المهمة التى لا يتلقاها سوى أقطاب الصوفية: التصديق والإيمان والمعرفة والتوكل والمحبة والذكر والتقوى والمراقبة والرجاء والصبر والقناعة والتسليم والتفويض والقرب والشوق والحياء والتعظيم، وغيرها من المقامات والأحوال .

لم يكن ارتداء مريديك الخرقة مما ترضى عنه، أو توافق عليه. ترفض الإجازة بالسلاسل والطرق والأفعال الغريبة، تحذر مريديك من الزيغ والغلو، تدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة.

وأنا أجلس - للمرة الأولى - بين يديك ، تملكنى شعور، أنى فى حضرة ولى بلغت به مكاشفاته مرحلة القطبية، يعلم مالا نعلمه، ويرى ما لا نراه، يرشد خطواتى، وينصح بالصواب، ويحذر من نقيضه. فى بالى، قول عم عرابى: إذا كنت مريضاً، فلا تعالج

نفسك بنفسك ، دع الأمر لشيخ يعرف الداء، ويصف الدواء.
قلت:
ـ أريد أن أتعلم.
وأنت تمسد ذقنك:
ـ العزلة بالجسد أولاً هى لأهل البدايات، من يتلمس الخطوات الأولى.
العلم تكنسه الأيام كما تكنس الريح مزق الأوراق، ما لم يصدر عن نفس تقية، ويتلقاه ذهن يحرص على المعرفة، النبتة الجيدة تلزمها تربة صالحة للزراعة.
نصحت بأن أكون ـ فى عزلتى ـ على علم كامل بأحكام الشرع وعلومه. العزلة طريقى إلى الخلوة. الخلوة ـ كما حرضتنى عليها ـ لم تكن فى مجرد اعتزال الناس، ولزوم المساجد فى أوقات ما بين العمل، وإنما اعتزال الخصال المذمومة. أشارك الناس حياتهم، وإن اعتزلت ما سوى الله، فأكون صادقاً مع نفسى.
زرت تجاراً فى العطارين والباب الجديد والسبع بنات والمنشية الصغرى. رددت إليهم ما كنت اقترضته من أموال، أو قيمة بضائع لم أكن سددتها ـ هى الحقوق التى للناس عندى، خطوة تالية، مهمة، حرصت عليها، أتخفف فى الدنيا، فتخف المساءلة.
عدت إليك، أرقب نظراتك إلى نقطة لا أراها:
ـ ليس العلم أن أنقل لك ما أعرفه. العلم الحقيقى هو ما نسعى إلى الإفادة منه.
وافقت على ما اشترطته ألا أزور ولياً من أهل العصر، ولا صالحاً، إلا بإذنك ،ولا أحضر مجلس غيرك إلا بإذنك، ولا أسمع من سواك، حتى يتم سقيى من ماء سرى. أقدم محبتك على محبة غيرك، عدا الله ورسوله، أكتفى بفيض علمك، لا أتلقى العلم من علماء آخرين، أو أقرأ كتاباً فى العلم إلا بإذنك، ألازم الورد الذى

رتبته لى، لا أعترض على أى شيء تفعله، ولو كان ظاهره أنه حرام، ولا على قول أو تصرف، حتى لو بدا حراماً، أو مخالفاً للشريعة.

كنت - قبل أن أدخل إلى حضرتك - قد جلست إلى عم عرابى خادم المسجد. عرفت أن رفع الظلم يتحقق بالسلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون.

روى لى عم عرابى عن التجاء الملهوفين إليك، يلوذون بمجلسك. أنت - فى إجماع مريديك - القطب الغوث الفرد الجامع، ما تملكه من علوم ومعارف يقصر عنه الناس العاديون، وتملك من العلم اللدنى ما لا يتوافر حتى لأقرب الأتباع.

علمنى أن أجلس إليك كما أجلس للصلاة، ولا أكثر من مجالستك، لا أتقدم عليك، لا أتكلم قبلك، ولا أتناول الطعام، أو أضحك، فى حضرتك، لا أتصرف فى شيء إلا بأمر منك، لا أديم النظر إلى وجهك، فأعرض نفسى لزوال البركة.

اتجهت ناحيتى بنظرة شاردة:

- أنت لن تحصل على شيء لم تسر فى الطريق إليه.

وهززت إصبعك فى الفراغ:

- المجاهدات والمكابدات طريق إلى جليل المعانى.

دعوتنى إلى الحفظ والتأمل والتركيز والتفكير. قلت إن ما يسرى من العلم فى باطنك، يسرى إلى باطنى، قنديل يقتبس من قنديل. أخافنى تصورك أن عيشى تحت جناحيك سيبقى إلى الأبد. قلت لى: إذا حرصت على السير بمفردك، فقد تضيع خطواتك وتفقد نفسك. وقلت: لابد للرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح. وقلت: على المريد أن يكون فى حضرة شيخه كما الميت بين يدى غاسله.

مددت لى بالكتاب المهترئ الصفحات:

- اقرأه.

لم تذكر ما يتضمنه، ولا لماذا قدمته لى، كى أقرأه. ما العيب الذى لاحظته، فأردت معالجته؟

أخذت العهد على يديك، وأن أسير سيرتك، لا أنقض ما التزمت به، مهما تتغير الأحوال. من واجب المريد أن يسلم لشيخه بكل ما يقول، لا يرد عليه أبداً. فرق بين أن يسأل المريد ليفهم، وبين أن يسأل لإظهار العلم.

تعلمت ما أعرفه، وما لم أكن أعرفه، من أراد أن يسلك الطريق، فلابد أن يقطع المنازل، ويترقى فى المقامات، لا يرتقى من مرحلة إلى أخرى، قبل أن يتحقق فى المرحلة السابقة، ويحكمها تماماً.

قلت :

ـ أنت الآن فى مقام التوكل، لكى تجتازه فلا بد أن تسقط إرادتك.

تلقيت أولى مراحل سلوكى: الانقياد والطاعة التى لا تسأل ولا تناقش. أحرث ما تعلمته من علم قبل أن أجلس إليك لتلقى العهد، لا أنازع، ولا أعترض، فأنقض عهدى، وأنقطع عنه، حتى لو ظللت ملازماً للحضرة المهيبة. حتى الدعوات والابتهالات والزيادة فى الأوراد، لا تصح إلا بإذن شيخى.

حذرتنى من أن أفشى سراً من أسرار الطريقة، إلا أن تأمرنى. الكتمان واجب المريد، لا يتخلى عنه مهما تكن المغريات والتهديدات. لا اختيار لى. لا أسأل لماذا؟ ولا كيف؟ ولا إلى أين؟

الصمت هو ما يجب أن ألتزم به، كالميت بين يدى الغاسل.

صرت فرداً فى الطريقة، أشارك فى الحضرة، أردد الأذكار، أمارس الطقوس. حرصت أن أقتدى بك فى كل شيء، صغائر الأمور قبل عظائمها، أسير فى الدرب الذى تسير فيه، لا أسأل: لماذا هذا الدرب دون سواه من الدروب المتعددة؟

بدأت أرتقى المنازل والمراحل، ما يجدر بالسالك أن يجتازه إلى

المراتب العليا، تظل فى تدرجها حتى ينال غايته، التى هى وصول إلى الحقيقة، يرتقى من مقامات الشريعة إلى فتوحات الحقيقة.

أجزتنى، وكلفتنى بتلقين المريدين.

●●●

لم أكن المعنى بما حدث، لكننى رأيت نفسى فى حامد السلامونى. وجدت فى كلماته ما يضايقك، فطردته من مجلسك.

همس بالملاحظة عن اجتزاء قضايا الشرع وأحكامه من سياقها الأعم، عزل كل منها عن سائرها، تجزيء ظل قضية إلى أجزاء يصعب اكتمالها.

ما تنطوى عليه نفس الولى من محبة لمريديه، وللناس، تفرض عليه أن يتسامح، ويعفو، ويغفر. العكس ما بدا فى تقلص الملامح، وتشويحات اليدين، واتهامات الكفر والمروق والعصيان.

فى لحظة لا أذكرها جيداً، ثارت فى داخلى الأسئلة: لماذا يتنازل المرء عن نفسه؟ لماذا يقتصر دوره على تلقى الأوامر والتبعية والخضوع؟ لماذا تنفرد - لك الاحترام والتوقير - دون سواك، بمعرفة أسرار الطريقة، وتفسير ما يحتاج إلى ذلك؟

لم أعد أطيق وضع المريد والمملوك والتابع والبائع نفسه والعبد. أرهقتنى المحاكاة فى كل ما يصدر عنك، الحركات والسكنات والأقوال والأفعال وطريقة التفكير. أردد الكلمات والتعبيرات دون أن أعى معناها. يثيرنى قولك إن وجودك فى حياتى، تدخلك بما يقيد فعلى، هو لحمايتى، ولمنعى من الخطأ.

شعرت أنى لست حراً.

أضاف إلى استيائى غلو مريدين بما يجاوز الحد والاعتدال. كل ما تقوله، أو تفعله، يستحق التقدير. بدوا فى حالة انبهار دائمة.

أدرك ثمن ما أعد لفعله، لمجاوزة الأسئلة والأوامر والنصائح، وللتحرر من القيود التى أعانيها. لم أعد أحتاج إلى نصائحك

وتوجيهاتك وأوامرك. أريد أن أنطلق بمفردى، أهمل الوصايا، وما يجب وما لا يجب، ألامس الإشراق بنفسى.

يستطيع المريد - إن لم يطمئن إلى شيخ يربيه، ويرقيه، ويوصله إلى الله تعالى - أن يلزم الصلاة على النبى ، تربيه ، تهذبه ، ترقيه إلى المحل الأسنى فى الحضرة الإلهية.

همس لى عم عرابى بخوفه من أن يلحقنى العذاب الإلهى، إن اعتبرت من المعترضين. مبايعة المريد أستاذه توجب التسليم، وعدم المنازعة، وحسن الاعتقاد. التدبير نقض لعقد البيعة بين الشيخ ومريديه .

ما أحزننى أنك طلبت من المريدين أن يبتعدوا عنى، لا يتصلوا بى، ولا يحضرون مجلسى، ولا ينصتون لى.

●●●

لما عدت إلى مجلسك، بعد طول غيابى، أظهرت الترحيب، تحدثت عن القسم على السمع والطاعة.

رفعت عينين متفحصتين:

- دكانك فى شارع الميدان.. هل تحتاجه؟

أردفت مذكراً:

- عندك دكان الموازينى.

غلبنى إحساس المفاجأة، فسكت:

- إنه يساعدنى فى الإنفاق على بيتى.

قلت بلهجة باترة :

- أريده لواحد من أبنائى.

فطنت إلى الرفض فى داخلى، وإن حاولت كتمه، فلا أعلنه.

حذرتنى من أن شرط العهد الذى قطعته على نفسى، ألا ينكر المريد على شيخه شيئاً من المكاشفات والكرامات والأفعال الخارقة والإجابات التى ترفض الأسئلة.

بدا العهد الذى قطعته على نفسى سخفاً لا معنى له ، قيداً يجب أن أتخلص منه. أرفض أن تكون التصرف فى ذاتى، وفى ما أمتلكه، وأن أظهر السعادة والانبساط.

ذكرتنى بآداب المريد مع شيخه: أن يمتثل لأوامر الشيخ، ويجتنب نواهيه، لا يناقش، أو يحاول أن يتعرف إلى حكمة الأمر والنهى، ما يبدو مذموماً فى الظاهر قد يكون محموداً فى الباطن، لا يخالف حتى إذا قال الشيخ ما يبدو مخالفاً للشرع. حتى المعروف، يتوقف عن فعله إذا أمره الشيخ .

خالط الغضب صوتك:

- المريد الحقيقى لا يسأل أستاذه ولا يناقشه.

وتلكأت فى نطق الكلمات:

- أنت - منذ تلقيت العهد - دخلت فى إرادتى.

حذرتنى من أن الصدأ الذى تراه فى نفسى، ربما أوقفنى عن الترقى إلى ما فوق المقام الذى أنا فيه، وربما صرت بلا مقام ألوذ به.

ما أريده أن يكون لى الحق فى أن أتنفس وأصرخ وأبكى وأضحك وأنام وأصحو وأقبل التكليف أو أرفعه، أعيش حياتى بالطريقة التى أراها مناسبة. أشعر بوطأتك على كل ما أسعى لبلوغه، ما لا ينتهى من الملاحظات والمؤاخذات والأوامر ، والأسئلة التى لا أملك أجوبة لها.

نزلت إلى الميدان الواسع، لفته الظلمة، وإن تناثرت أضواء فى أطرافه البعيدة.

كنت قد أزمعت ألا ألتفت ورائى، وأن تكون تلك الليلة آخر العهد بمجلسك.

زوال الغمة

الموالد مناسبة لليالى الذكر، وحضرات الساحة، والإنشاد، ولقاء من كان مولد أحد أولياء الله آخر لقائنا بهم.

اتجهت نظراتنا نحو البحر، نرقبهم وهم يطوون الخيام، ويرفعون الأوتاد، ويلفون أقمشة السرادقات. يضعون الأحمال فوق عربات الكارو، يقفزون إلى جوارها، يعلو صوت الحوذى وكرباجه، فيتقلقل الحمار فى موضعه ، ثم يمضى.

توالى انطلاق العربات ناحية الكورنيش.

كنا - نحن مريدو المرسى أبو العباس - مطمئنين إلى أن كل ما حولنا يخصنا. مساجد مريدى الشاذلى: أبو العباس ، البوصيرى ، ياقوت العرش ، نصر الدين، وغيرهم، الغلبة فى حضرة الساحة لمريدى الطريقة الشاذلية، يجاورهم، ويلتقى بهم، مريدو الطرق الأخرى. جاوز المرسى صفته كقطب للحى، إلى قطب للإسكندرية كلها، هو القطب الأعظم، والسلطان، يدين بالولاء له رجال المدد.

الموالد مناسبة لليالى الذكر، وحضرات الساحة، والإنشاد، ولقاء من كان مولد أحد أولياء الله آخر لقائنا بهم.

كان المولد فى بداياته.

قدم الصييتة والمداحون ورواة السيرة وقصص كرامات الأولياء، من المدن والقرى القريبة، انتشر الشيوخ ومريدو الطرق الصوفية والفقراء فى ميدان الأئمة والشوارع والحارات المتفرعة عنه، والدحديرة الصاعدة وراءه، تناثرت حلقات الذكر والخيام وعربات الكشرى والفول والفلافل ولحمة الرأس وأرغفة النابت والولائم، وأكشاك الختان وصندوق الدنيا والأراجوز وسرادقات المداحين والمنشدين والحكواتية والصييتة والحواة ومروضى الثعابين والغوازى والخلابيص، ونافخى النار، والخيول الراقصة، والساحر والمرأة، وألعاب النشان، واختبار القوة، والحظ، والورقات الثلاث، والسيوف الخشبية، والعمائم الخضراء، وأولاد عبد السلام، ارتفعت الأعلام والأشاير والزينات ولافتات القماش، علت مكبرات الصوت فوق السرادقات بالأوراد والأحزاب والأشعار والأدوار

والأغنيات والسير والملاحم الشعبية وإنشاد دلائل الخيرات، وأصوات الصنوج ودقات الدفوف والطبول والزغاريد وضرب النقرزان والمزمار البلدى ورقص الخيل.

تسارعت الإيقاعات.

صحونا - ذات صباح - على ضريح، بالقرب من مقام سيدى كظمان. لم نعرف الولى الذى سجى فى داخله، أو أنه بنى على خواء. تحدث الرجل عن الولى قطب الطريقة، انشغل أعوانه - طيلة الليل - بإعادة دفنه فى موضعه الجديد، بالقرب من أولياء الله الآخرين. لم تؤثر السنوات فى سلامة جثمانه، هو - منذ الآن - ينتسب إلى الميدان، ويدين له ألوف المريدين بالقطبية والولاية، هو الذى يرشدهم، ويقودهم فى طريق الوصول إلى الله.

تملكنا هاجس قوى أن مريدى هذه الطريقة ليسوا من الطرق التى امتلأت رحبة الميدان بسرادقاتها وخيامها وحلقاتها، يؤدون الطقوس نفسها. ترتفع أصواتهم بالابتهالات والإنشاد والأدعية، لكن شيئاً ما مغايراً، يتخلل الأصوات والإيماءات وتطويحات الأيدى.

تحول الهاجس إلى شعور بالدهشة وعدم الفهم، حين قدم أتباع الطريقة بأعلام وإشارات وأناشيد وأهازيج، تختلف عما نردده فى موالدنا، وعند أعتاب آل البيت والأولياء، وأضرحتهم، ومقاماتهم. يقتصر المنشدون على إنشاد القصائد والأدوار، وبالشروح التى تذكر كرامات الولى ومعجزاته، وتسعى إلى إرضاء أتباعه، لأنهم الغالبية فى مولده.

أدركنا - برؤية الزى المائل إلى الصفرة، أنهم يختلفون عن طريقتنا، وعن الطرق الأخرى، العمائم السود والبيض والحمر ترمز إلى طرق صوفية، نعرفها، وتنتسب إلى طريقتنا الشاذلية بالقرابة والنسب. هذه الطريقة الوافدة يرتدى أفرادها عمائم صغيرة،

نقوشها غريبة، ولونها غائب، لا ينتسب أفرادها إلى الشاذلية ولا الرفاعية ولا القادرية ولا الجيلانية ولا الأحمدية أو الميرغنية أو الخلوتية أو السنوسية. نصبوا الخيام والسرادقات الصغيرة، دقوا الأوتاد. لزموا المساجد ومداخل البيوت والأسطح والأحواش والمقاهى والشوارع المتفرعة من الميدان والدحديرة - خلف الجامع - المفضية إلى شارع الموازينى.

امتد الزحام إلى قرب البحر.

أضافوا إلى الخيام والسرادقات أكشاكاً صغيرة، يبيعون فيها كتباً ومجلدات ومخطوطات وطلاسم وأحجبة، يصطف أبناء الطريقة لشرائها، أو يحصلون عليها بلا مقابل.

بدت طقوسهم مخالفة لما كنا نؤديه من طقوس وشعائر. مالوا إلى الرقص والغناء ونفخ المزمار والعزف على الربابة والنقر على الدف والطبلة.

لم نتصور أن احتفالاتنا بالمولد يطرأ عليها تغير أو تبديل. ألفنا الطقوس منذ الإعداد لها، حتى نخلف الميدان الخالى وراءنا.

سرى الضيق فى نفوسنا من أفعال الطريقة: رفع الأعلام والأشاير على الأعمدة والشرفات وفوق الأسطح، الأغنيات والرقصات لا صلة لها بما تعودناه من الإنشاد والتسابيح والابتهالات والأدعية، والمعارك الصغيرة يفتعلونها، يلجأون إلى السيوف والمطاوى والخناجر والهراوات والشوم.

بدوا أهل استعلاء، واستخفاف بالطرق الأخرى. تصوروا فى أنفسهم ما ليس فيها.

حدسنا أنهم يفتعلون المعارك للتشويش على التكبيرات والأذكار والأدعية والأهازيج، أو للسيطرة على ساحة المولد، يؤول إليهم ما ألفناه من شعائر وطقوس، ما توارثته الطرق فى تعددها، وإن جمعها الحب لله ورسوله وآل بيته وصحابته والأولياء والتابعين.

يصبحون هم نحن، فتغيب الصورة الحقيقية.

اقترح الشيخ أمين السلامونى، إمام جامع المرسى، ما وجد فيه اتفاقاً للطرق المجتمعة فى المولد. إذا كانت هذه الجماعة من الصوفية، فلماذا لا ينضم أفرادها إلى الحضرة الجامعة، الحضرة الكبيرة، تقتصر على عبارات التوسل لله سبحانه، والمديح لرسوله، وآله، وصحابته ، والتابعين؟.

تحدثت الطريقة عن الحرص فى التوزع بين السرادقات والخيام ومداخل البيوت، الشعائر تختلف، فلا تأذن بالذوبان. شيخ الطريقة هو الذى يحدد ما يلقى فى احتفالات المولد، والألحان المناسبة، والإيقاع، والأداء، ما تختلف به الحضرة المرتبة عن الحضرة الجامعة. تنحصر الأغنيات والأدوار والقصائد فى مديح أولياء تغيب أسماؤهم عن كتبنا. لم نكن تعرفنا إلى ولاياتهم، ولا ما نسب إليهم من بركات ومكاشفات، هى أسماء يرددها أبناء الطريقة، دون أن يشيروا إلى النشأة الصوفية، وأخذ العهد، والتراتب داخل الطريقة. أضافوا إلى الآلات الموسيقية التى نعرفها، ونتوارث استعمالها، آلات أخرى، موسيقاها أقرب إلى الضجيج. حتى الكلمات التى كانت تؤدى بها، لم تكن ـ فى عمومها ـ ما ألفنا سماعه.

أغاروا على الخيام والأكشاك والزوايا والأركان، سلبوا ما بحوزة المارة والقعود من أموال ومتعلقات. حتى المداسات التى جعلها المتصوفة وسائد فى صحن أبو العباس، صحوا على اختفائها. ضايقوا النساء فى الأسواق، وحول مقامات الأولياء، وفى ساحة المولد.

أدركنا أن الطريقة لا صلة لها بطرقنا، لما اختطفت يد أوراد الشاذلية من يد مريد للقطب الأعظم، وقذفت بها على كومة زبالة. حتى الخلافات بين الطرق لها أصولها، ينصت الشيوخ إلى الاجتهادات، ووجهات النظر، والمداخلات، يقضون بالحكم الفصل

الذى يخضع له الجميع.

لا قيمة إذن لكل ما نؤمن به، ونعمل من أجله.

تعددت محاولات الاعتداء على أتباع الطرق. اختفى الكثيرون من قلب المولد. ألقيت الأوساخ على الخيام والسرادقات. غاب الفاعل، فلم نعرف من هو، لكن الخوف اقتحم النفوس، وناوشتنا التوقعات القاسية. تعالت الاستغاثات، والتوسلات، والتغنى بكرامات الأولياء ومكاشفاتهم.

نصحنى ولينا الشيخ عبد المقصود الدجوى، بأن نهمل استفزازهم، ونتمسك بالصبر، نقطع العلائق التى تحول بيننا وبين ما قدمنا من أجله، ما نسعى إليه، نصرف همنا عن كل شيء، تقصر نفوسنا على التوجه إلا إلى الله، تجد فى نصرته عوضاً عن كل شيء، حدود أيامنا هى الرياضة والمجاهدة والخلوة والمشاهدة والذكر، تبصر عيوننا الذات الإلهية، فلا ترى سواها، مسئولية ولى الله أن يحمى مريديه، تركوا أعمالهم، وأخلصوا فى الإشادة بكراماته ومكاشفاته ومناقبه.

إذا كان الأغراب قد قدموا لأغراض مكروهة، فإن سلطان الإسكندرية هو المتكفل بحماية رجاله ورعايتهم.

نصب أبناء الطريقة خيامهم، بالقرب من مسجد سيدى نصر الدين، فى الساحة الصغيرة المؤدية إلى شارع السيالة، فلم يستوقفنا الأمر. تصورنا الخيام امتداداً لخيام الطرق التى ضاق بها ميدان أبو العباس، فشغلت الشوارع الجانبية ومداخل البيوت.

حين بدأ خليفة أبو سيف - مريد الطريقة الأحمدية الشاذلية - دق الوتد ليقيم خيمة، سارعت يد إلى الوتد، وألقته بعيداً.

رفع مدحت الأسوانى عينيه متسائلاً :

- لماذا؟

قال الرجل ذو البشرة المنمشة:

- هذا مقام ولينا.

قال أبو سيف:

- ومقامات أوليائنا أيضاً، نحن مريدو أولياء الحى.

أشاح الرجل بمعنى الرفض:

- مقام ولينا يجب ألا تجاوره أضرحة ولا مقامات أخرى!

كرر الشيخ عبد المقصود الدجوى نصيحته، بأن نعتصم بالصبر، لا نتيح لهم إدخالنا فى معركة يبدأونها، ويعرفون نهايتها .

لم يخف الشيخ الحسينى حماد تأثره :

- إذا لم يرجع أفراد هذه الطريقة الغريبة عن غيهم ، فإن سيوف الطرق الصحيحة ستقطعهم كما يقطع الصيادون سمك القرموط !

بدا أن الأغراب ألفوا هذه التهديدات، فلم يعبأوا. ظلت أفعالهم على حالها. أوذى من أبناء بحرى خلق كثير، لاذوا بمقام المرسى، يمسحون قضبانه الحديدية بأيديهم، يهمسون بالدعوات والابتهالات، ويتمنون زوال الغمة.

لسنا ندرى - على وجه التحديد - كيف تطور الأمر، وإن كان الرجل هو الذى بدأ الضرب.

فاجأ المريد العجوز بلطمة قوية على وجهه، لاحقه - فى لحظة تداخل جسده، ووضع يده، بتلقائية ، على خده - بركلة فى صدره، قذفت به إلى الوراء. ما كاد يستعيد وقفته حتى وجه الرجل إلى بطنه لكمة تألم لقوتها، توالت اللكمات والركلات بما لم يقو المريد العجوز على رده، بدا كأنه يعرف أين يوجه الضربة بحيث تؤلم. غطى العجوز بيديه أسفل بطنه، وأحنى قامته، يتقى الركلات التى صوبها الرجل إلى ما بين ساقيه. استند العجوز على راحتيه، يحاول استعادة توازنه، لكن الرجل عاجله بضربة بالقدم فى ذقنه، فتطوح جسده. امتدت يد الرجل إلى عنق العجوز، تحيط به، تعتصره. اكتفى العجوز بصرخات متعبة، متحشرجة، ونظرات دامعة، تطلب الغوث.

كان الحال قد فاض بنا.

فى اللحظة التالية لإشارة الشيخ عبد المقصود الدجوى، تقدمت الأعلام والأشاير انطلاق الفرق إلى قلب الميدان الصغير.

ارتفعت الأيدى بالعصى والسيوف والبلط والسواطير والخناجر والشوم، اختلط الضرب والصراخ والأنين والبكاء والصيحات، وانبثقت الدماء. قدم أتباع الطرق من ميدان أبو العباس والشوارع الجانبية، امتلأت الساحة الصغيرة بالأجساد المتعاركة. رافقت الضربات صيحات، ونداءات، وهتافات، وأدعية، وشتائم، عادت أصداؤها من الجدران متداخلة، فغاب الصوت المحدد.

علت الدفوف فى أيدى النساء، على الأرصفة، ومداخل البيوت ومن فوق الأسطح وخلف الشرفات، يرافق إيقاعها الزغاريد، وكلمات المؤازرة والتشجيع.

أربكت المفاجأة تناثر ذوى الأردية الصفراء، تدافعوا ناحية طريق الكورنيش، والشوارع المتفرعة من الميدان .

علا صوت، حدس المريدون أنه لولى الله سيدى نصر الدين:

- دعوهم يرحلون !

تابعنا - من مواقعنا خلف النوافذ والأبواب الموارية, وداخل الدكاكين والمقاهى، ومن فوق الأسطح - انشغال أفراد الطريقة برفع السرادقات والخيام، ونزع الأوتاد، ووضع الأحمال على عربات اليد الصغيرة .

عند رفع أذان المغرب، كانت الساحة قد خلت من غالبية أتباع الطريقة ذات الأردية الصفراء، ومن خيامها وسرادقاتها وأكشاكها.

خلا الميدان إلا من أتباع الفرق المتصلة بالأحمدية الشاذلية، تساندوا إلى الجدران، وثمة نثارات دماء، وبقايا ملابس، وشظايا زجاج، وقطع أخشاب وحديد، وكلاب ضالة .

ظلت نظراتنا فى اتجاه البحر، ترقب أتباع الطريقة فى انسحابهم الصامت، لا تعقيب، ولا نداءات، حتى غيبتهم انحناءة الطريق.

فى ساحة الإنشاد

طريقة الرجل مذهبه، لم يشر العقبى إلى طريقته، فغاب المذهب الذى كان يؤمن بتعاليمه، وما يدعو إليه.

لم يصدق الشيخ جابر أبو عبية أن سيد العقبى يرفض أداء كل ما تعلمه منه ، يصر أن يقرأ مدائح لا يدرى من وضعها له، ولا إلى من يتجه بها، هى الكلمات نفسها عن الله والمصير والرغبة فى الفرار من العقاب ودخول الجنة، يرددها المنشدون والمداحون والمولوية والصييتة فى الموالد والليالى وساحات الحضرة، لكنها تختلف فى أداء العقبى بنقل المعنى، يتأمل الناس تعبيراته، يجتذبهم صوت العقبى المحمل بالعذوبة، ينفذ إلى الأعماق، يصعد بالنفوس إلى آفاق علوية.

أول رؤيتنا لسيد العقبى، حين ردد وراء الشيخ جابر أبو عبية منشد الطريقة الشاذلية، علا صوته بين الذاكرين، يردد ما يقولون من المدائح والأشعار وبردة البوصيرى. لم يلفت اهتمامنا، وإن اجتذبنا فى صوته بحّة، لا تخلو من أنوثة.

تعرفنا إلى ملامحه الظاهرة، عند ظهوره فى الموالد والليالى وساحات الحضرة. يردد ما حفظه عن الشيخ أبو عبية من المدائح فى النبى وآل بيته، وفى التنبيه إلى أحوال الدنيا وأحداث الأيام.

تكررت مشاركاته فى الحضرات المرتبة للطريقة الشاذلية ، موضعها السرادق الملاصق لجامع المرسى من ناحية السيالة .

تعددت الروايات عن نشأته.

قيل إنه عمل صبياً للأسطى سعيد قطا نجار السواقى بعزبة خورشيد، وتحدثت روايات عن إفادته من فترة عمله فى قهوة المعلم البابلى، المطلة على الأنفوشى، وأكدت روايات أنه مجهول النسب، ما كتبه فى شهادة ميلاده يختلف عن اسمى الوالد والجد مما سرّبه إلى السلفية فى الرواية والحكى. وقيل إنه طال اشتغاله ببيع البضائع الصغيرة: ساعات يد، وميداليات، ونظارات شمسية، وسبح، وأمشاط، ومقصات، وسكاكين، وأقلام رصاص، وأقلام حبر، وكوتشينة، وميداليات، وألعاب للأطفال، وعطور، وأدوات

تجميل، يحملها فى حقيبة مفتوحة، على صدره وساعده، يتنقل بين المقاهى والدكاكين والميادين والشوارع المزدحمة، وقال الشيخ حجازى رضوان، قارئ التلاوة فى جامع البوصيرى، إنه التقى العقبى - للمرة الأولى - فى مقابر العامود، تسابقا للحصول على الأقراص والكعك والفطائر والمنين، رحمة ونوراً على الموتى. تكررت لقاءاتهما فى المقابر، قبل أن يطالعه العقبى، مساعداً للشيخ أبو عبية فى إنشاده.

روى إنه سمع إنشاداً - لم يسبق له التعرف إلى صاحبه - فى سرادق بمولد سيدى البوصيرى، أعجب بالصوت وطريقة الأداء. تبين فى نفسه قدرة على المحاكاة، فأدى فى ساحة الحضرة ما سهل عليه حفظه.

بعد أن رحل عم فرج زينة المسحراتى، خرج العقبى بالطبلة، ينقر عليها، يدعو الناس إلى استكمال فريضة الصوم، أفاده التسحير فى التعرف إلى الناس، توثقت الصلة بينهم وبينه، ناداهم بأسمائهم، أخذ منهم وأعطى، منحوه زكاة الفطر والصدقات، ثم أدرك - فى اليوم السادس - أنه يسير فى زقاق مسدود.

فضل الخروج إلى الشوارع الواسعة.

قيل إنه استمع إلى إنشاد الشيخ جابر أبو عبية، فى السرادق الهائل، بالقرب من جامع سيدى نصر الدين، اجتذبه الصوت، والكلمات، وطريقة الأداء، لا إيقاعات، إلا صوت الشيخ والمستفتح، وتصفيق الأيدى. يبدأ الشيخ إنشاده، خفيضاً، هامساً، يعلو، ويعلو، حتى يبلغ الذروة.

أزمع أن يعد نفسه لهذا العمل. أخذ العهد فى الطريقة الشاذلية على يد الشيخ مكرم رسلان إمام الطريقة، تبعه بقراءة دلائل الخيرات، وكتب التوسل للذات العلية، وقصائد المديح، والتغزل بالنبى، والتوسل بخير البرية، وطلب شفاعته، وشفاعة آل البيت،

والصحابة، والأولياء. حفظ قصائد للمسلوب والمنيلاوى وأبو العلا محمد والبنا وسلامة حجازى وصبح وعلى محمود والطوخى والنقشبندى.

أخذ عن الشيخ جابر أبو عبية، تصرفاته، حركاته وسكناته. تدرب على طريقة الإلقاء، متى يضع يديه تحت ذقنه، متى يلصقهما بالأذنين، متى يعلو صوته ويهبط، كيف يفيد من آخر قراراته، يلجأ إلى التعبير بالإيماءات والإشارات وحركات اليدين وتعبيرات الوجه المصاحبة للأداء، يتغنى بالصبابة والوجد والشوق إلى الوصال، وإن أخذ العقبى على الشيخ - بينه وبين نفسه - أنه ينشد ما يوضع فى فمه، لا يتأمل الكلمات، ولا يتدبر معانيها، لا يشغله حتى نوعيات المستمعين، وتأثيرها، وهل يحسنون الفهم، أو أنهم يكتفون بسماع ألحان تمتدح الرسول.

عهد إليه الشيخ - فى البداية - بدور المجاوبة الغنائية، أقرب إلى المبلغ فى صلاة الجماعة.

طالت رفقته للشيخ حتى شال عنه كل ما يرويه، يعيد ما يستمع إليه، يلجأ إلى الارتجال والتأليف والتوليف والصنعة، ينظم الأبيات لحظة نطقها، يستغنى عن الحفظ إلا فى المعانى، يضيف ما يمليه خياله وموهبته. ربما علا صوته بما لم يكن له أصل، ولا استند إلى وقائع حقيقية.

حين طلب منه الشيخ أن ينشد معه جزءاً من الأداء، حاول أن يبدع بما يقارب أداء الشيخ، أو يفوقه، يتأمل انعكاس أدائه فى أعين الناس، يفرق بين مريدى الشيخ وبين من قدموا للاستماع.

هؤلاء هم الجمهور الذى يبحث عنه، وعليه إعداده حين ينشد - منفرداً - فى الموالد والليالى وساحات الحضرة.

يستجيب للأصوات الرافضة، والمعترضة، والتى تعلو بالملاحظات. يوقف النغمة، يستبدل بها نغمة، ونغمات، أخرى،

يتأمل صداها فى أعين الناس، وإيقاع تصفيقهم، يتبين - بنظرة متفحصة - استجابات الناس، ما بين طالب للإعادة، أو الاستزادة، ورافض، يظل على النغمة التى اختارها لإنشاده، أو يبدّلها، يسند خده إلى يده، يغمض عينيه، يعلو صوته بآخر طبقاته.

قبل أن يقتصر على نفسه، كان قد أنشد فى كل الموالد، ليس فى بحرى وحده، وإنما فى الإسكندرية والمدن الأخرى: موالد الشاذلى والدسوقى وأبو حجاج الأقصرى والمولد الأحمدى، وموالد الطاهرين من آل البيت: السيدة زينب والحسين والسيدة نفيسة وزين العابدين والسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة.

ردد قصائد أبو عبية فى البداية، ثم تحول إلى قصائد، ضفّر أبياتها من قصائد مختلفة، مزج بين أسلوب الشيخ فى الأداء، وبين أساليب تعرف إليها فى إنصاته لشيوخ آخرين. لم يتردد فى الحذف والإضافة والتوشية، وإن لم ينسب النبع إلى نفسه، ما فعله أنه استوحى، وألف، ولحن، أداؤه يكفل له توالى الموجات فى بحر الإنشاد.

لم يقصر ما يقول على ما أخذه من الشيخ، ومن المشايخ الآخرين. عنى بزيادة حصيلته من النصوص، بما يشمل كل الأغراض، وما يتفق مع أذواق الناس، وما يريدون سماعه. اختار ما لم يسبق إنشاده فى الموالد والليالى وحضرات الساحة. تنقل بين المقامات، زاوج بينها، وزاوج بين إيقاعات النغم الشرقى والنغم الشعبى، أدخل الآلات الموسيقية، حتى ما لم يستخدمه الشيخ أبو عبية، الكمان والناس والقانون والأكورديون، قدم من التوحيد، والمديح، والتوسل، والأوراد، والأحزاب، ما لم نكن قرأناه، ولا استمعنا إليه من قبل، وأنشد قصص الكرامات، وقصائد ابن الفارض وابن عربى، ترافقه آلات الطرب من الناى والربابة والعيدان والدف والطنابير.

امتد إنشاده إلى المدائح النبوية والابتهالات والتسابيح والتواشيح والأذكار والتخمير والقصائد والأدوار، ورواية معجزات النبى والرسل ومناقب الأولياء. أنشد للجيلى والجيلانى والحلاج والغوث.

فن الإنشاد له أصوله، وقواعده، وقوالبه، وإيقاعاته. حفظ ما لم يكن يعرفه بقية المنشدين: المدد، التوسلات، الأغنيات الشعبية.

حتى ما لم يعبر عن العقيدة الدينية، حتى الأدوار المحملة بالإيحاءات والإشارات الجنسية. يحرض من فى ساحة الحضرة أن يرددوا الإنشاد وراءه، يتحولوا إلى سنيدة ومذهبجية.

ربما التقط الناى أو المزمار من الطاولة الصغيرة أمامه، يصل الأداء الصوتى بفقرات موسيقية، فرشة تسبق الإنشاد. أدخل على الألحان إيقاعات غائبة المصدر، ليست الإيقاعات التى اعتدنا سماعها. غيّر فى النصوص كلمة، وكلمات، ثم حذف، وأضاف، وبدّل. يعتمد على البديهة، والقدرة على الارتجال، يضمن إنشاده أسماء رءوس العائلات فى القرى والأحياء التى تستقبله، ينوع فى الألحان والإيقاعات والأداء الصوتى، يخضع ما ينشده للمعانى التى يريد توصيلها. يمد الحروف، يطيلها، يقصرها، ينغم الأبيات، يحسن الوقفات، والسكنات، والترقيق والتفخيم. قد يهمل العديد من الأبيات لنبوها عن سياق المعنى. ينوّع بين نص وغيره من النصوص، ليبلغ هدفه .

حرص أن يوضح فى النصوص ما يبدو غامضاً، أو يقدم المعانى التى يشغله توصيلها، هى غير موجودة فى النصوص، أو متوارية. يوائم بين أذواق الناس، يختار لكل جماعة ما يروقها: الحب الإلهى، والنبوة، ومديح الرسول، وآل البيت، التغنى بمناقب أولياء الله، ومكاشفاتهم، وحوادثهم، وخوارق أفعالهم، التوسلات ونداءات النصفة والمدد، فراق الأحباب والحنين إلى موطن الميلاد والطفولة والنشأة .

لم يعد يجد حرجاً فى الإنشاد، فى حضور الشيخ أبو عبية.
طريقة الرجل مذهبه، لم يشر العقبى إلى طريقته، فغاب المذهب الذى كان يؤمن بتعاليمه، وما يدعو إليه.
جعل لنفسه مجموعة، يحيطون به، يرافقونه إلى الأماكن التى ينشد فيها، الساحات والقاعات الواسعة والسرادقات، يرددون ما ينشده، تعلو أصواتهم بعبارات الاستحسان والثناء، تصفق أيديهم بالإيقاع المصاحب للكلمات، الدور نفسه الذى طال قيامه به فى صحبة الشيخ جابر أبو عبية، حتى أذن الله فاستقل بنفسه.
حاول أن يضمن إنشاده آراء وانتقادات وما ينفع الناس، يستشهد بسيرة الرسول، وسير الأنبياء، وقصص آل البيت، والصحابة، والأولياء، والتابعين، تمازجها الكناية والتورية والإضمار .
لم يتحدث عن تأليف طريقة صوفية، وإن زاد عدد المعجبين بصوته، فصاروا كالمريدين فى حضرات شيوخ الطرق، حفلت الساحات بمواكبهم، انتشروا فى الشوارع الرئيسة، والجانبية. حتى الساحة الحجرية أمام قلعة قايتباى، صنعوا فيها حلقة، نشروا الزينات والبيارق والرايات الملونة، وتعالت أصواتهم بما حفظوه من الكلمات التى نحسن فهم معانيها.
جاوز بقصائده جلسات الخواص وحلقات الذكر ومجالس شيوخ الطرق، إلى الموالد والسرادقات التى يفد إليها آلاف العوام واللقاءات المفتوحة.
أرخى العذبة من العمامة الهائلة المستقرة فوق رأسه، أهمل شعره، فلم يقصه حتى انسدل على كتفيه، يضفى على هيئته مهابة بالنظرات النافذة، واللحية التى أحسن تشذيبها، والجلباب الصوف، والشال الملتمع حول عنقه.
جعل العقبى من بيت ذى طابقين، يطل على ناحية خليج الأنفوشى، سكناً له، يعكف فيه على العبادة والمراجعة وحفظ

الجديد من الإنشاد، فلا يداخل نفوس الناس بالمتكرر، وما يبعث الأمل، يستقبل محبى صوته، لا شأن له بوعظ ولا إرشاد. ظل على حاله منشداً، يؤدى المدائح والأدوار والأغنيات.

لجأ إلى الوسائط التى لم يستخدمها جابر أبو عبية، ولا أى من المنشدين الآخرين، كشريط الكاسيت والأسطوانة الرقمية، أضاف إلى إنشاده ما حفظه من الشيخ أبو عبية، وإن لم ينسبه إلى نفسه، لم ينزع نفسه عن الطريقة الشاذلية التى مثل أبو عبية حلقة فى سلسلة منشديها، كل الإنشاد يصدر عن العقبى، وله حسن الجزاء والمثوبة.

طال صمت الشيخ دون أن تبدو فى تصرفاته نية الرفض.

روى أنه دعا أفراد فرقته لتدبر ما جرى:

- إذا ظل الناس على سماعهم للعقبى، فستكون النتيجة خراب بيوتنا!

توزع أفراد الفرقة، ومن يتبعونهم، فى القرى والأحياء والأسواق والخلاء وداخل الميناء وعلى الشاطئ، حتى ورش القزق دخلوها، ودخلوا البيوت والسرادقات والموالد، زاروا الجوامع والزوايا والمقامات والأضرحة، ترددوا على الساحات والمقاهى وحلقة السمك، همسوا بالملاحظات والتحذيرات والتوقعات والخوف من ضياع البركة.

عرف الناس أن رفض أبو عبية زيارة العقبى فى بيته لأنه أساء إلى الإنشاد، وشوش أفكار الجماعة، أضاف، وحذف، وبدل، بما خرج بالكلمات عن الطريقة الشاذلية، وعن أصول المهنة، واجتث جذورها.

شاغل أفراد الفرقة ومن يقودونهم، أن يقبل الناس على الصلاة فى مواعيدها، يسبقونها ويلحقونها بركعات السنة، وبالنوافل، يجلسون فى حلقات الوعظ والإرشاد الدينى، وقعدات الصوفية،

وقراءة القرآن، وتجويده، ينتظمون فى حلقات الذكر. ثم يمضون إلى سرادقات منشدى الشاذلية، وقصائدهم، وحكاياتهم.

ترك جماعة أبو عبية للناس أمر الخلاص من المعاناة، أن يتخلصوا من العقبى بطريقتهم. اعتبار ما كان كأنه لم يكن، وإعادة الأمر إلى صورته الأولى .

ينشد الشيخ جابر أبو عبية مدائحه المتفردة فى سرادقات بحرى، ظله مساجد الحى، وشفاعات أولياء الحى ومددهم، تطلعه إلى الذات الإلهية بالتوسل والرجاء، صورة الإنشاد الدينى كما اعتادها الناس .



الوصية

نصح جدى الهادى أن يكون أبناؤه وذريتهم متساوين، فلا تفاقم الضغائن والأحقاد ما ظهر فى حياة العائلة، وثبتت ملامحه.

لما طال المرض بجدنا، وألزمه البيت، عرف أنه مرض الموت . لم يعد من المقبول أن يخفى الوصية التى شغله التفكير فيها، وإعدادها، خلال سنى حياته الأخيرة.

كان جدى جالساً فى مدخل دكانه، أول شارع السكة الجديدة، لما سمع هاتفاً يدعوه إلى الصحو من غفلته. أدرك دنو الموت، أزمع أن يترك الدنيا، ويتجه إلى الحياة الآخرة بأداء الفرائض، والتمسك بالزهد والورع.

ترك الدكان لأكبر أبنائه، ولازم العبادة، تمنى أن يموت مصلياً، أو حاجاً، أو منصرفاً إلى قراءة القرآن.

تردد - فى آخر أيامه - إلى الشيوخ والفقهاء والعلماء، لازم مجلس إمام جامع نصر الدين فى فقه الدين، عنى بحفظ القرآن الكريم، ومعظم صحيح البخارى، وقرأ كتب الفقه على المذاهب الأربعة، وجوّد فى القراءات، ودرس الأصول والفروض، واستعاد شرح ألفية ابن مالك.

عندما أحكمت فكرة اقتراب الأجل سيطرتها عليه، فرغ إلى نفسه يكتب وصيته. أغلق عليه باب حجرته، لا يأذن حتى لأمنا بالدخول يوماً كاملاً، نهاره وليله، يكتب أسماء من يذهب إليهم الميراث، قال إنه جعل الأزواج أبناء عمومة وخؤولة، فلا يرثه الغرباء. رسم - بقلم رصاص - خيوطاً متوازية، ومتقاطعة ، صنعت - عندما وضع القلم - خطاً رئيساً، يتفرع منه ما يشبه الأغصان والأوراق. عرفنا أنه رسم شجرة العائلة، أضاف إلى المعنى سؤاله عن أسماء الحفدة الذين ولدوا حديثاً، أو أنهم ولدوا فى مدن أخرى.

قال عمى مهران إن جدنا الهادى كان يهيئ نفسه - فى الأيام الأخيرة - لما يبدو أنها رحلة طويلة، أو غياب يصمت عن مدته.

روى أنه لما أحس بدبيب الموت، أرسل فى طلب الشيخ عبد القادر الدجوى إمام جامع البوصيرى، وكانت بينهما صداقة، وأسرار تقتصر عليهما. لم يسلمه الوصية، وإن دله عليها، هى فى قلعة قايتباى، مدسوسة بين حجرين، رسم ما يسهل وصول الشيخ عبد القادر إلى موضع الوصية، صندوق خشبى صغير، أغلق عليه الوصية وحدها، لا يفتح، ولا تفض الوصية، ورقة واحدة مطوية، إلا بعد أن يفارق حياتنا، كتبت سطورها بخط يد الجد الذى نعرفه جيداً، ومن المستحيل تقليده.

وعد الشيخ الدجوى أن يودع الأوراق مكتب حسين طايل المحامى بشارع محرم بك. قال إنه حصل على النصرة لموكليه فى كل القضايا التى تولاها.

نفى الشيخ ما روى عن وجود الوصية فى حوزة خالى زاهر، وأن جدنا الهادى سلمه الوصية لتقتصر على صغرى الأبناء، حفظ الرجل الوصية لها حتى تكبر. رفضوا تزويج أمها عائشة لقاسم وهيدى تاجر المانيفاتورة بشارع الميدان، تتجب الأبناء، فيؤول الميراث إلى عائلة أخرى غير عائلتهم.

فرضت التخمينات نفسها على جلساتنا فى القاعة التحتية، نتابع زيارات الأطباء وعلماء الدين وشيوخ الطرق والدراويش.

كان أكثر إلحاح جدنا فى طلب الحاج طه السبيلى، حلاق الصحة على ناصية شارع السيالة من ناحية ميدان أبو العباس، يثق فى قدرته على الشفاء بما يعجز عنه الأطباء.

تساءل خالى زاهر :

- لماذا لا يرثه الأبناء فى حياته؟

وقال :

- يحصل كل واحد على نصيبه، أجدى من توقعات الشقاق بين الورثة، إن وجدوا فى الوصية ما يرفض الاتفاق.

ثم وهو يهز إصبعه:

- إذا لم يعدل أبونا فى وصيته، فإنى أخشى نشوء عداوات لا تنتهى .

ثنى إليه عمى مهران ملامح متسائلة:

- ما العدل الذى تراه مناسباً؟

- الشرع.. التقسيم حسب الشرع!

أشار عمى مهران إلى دفع جدى أولاده فى تجارته. همه أن تكون التجارة لأبنائه من الذكور، من صلبه ودمه، يبكون على ماله، يعنون به، يرث تركته الذكور دون الإناث.

وشوح بيده:

- العجوز حر فى ماله.. يفعل به ما يشاء.

أبطأ خالى زاهر فى نطق الكلمات:

- لماذا استن الحجر إذن ؟!

●●●

أظهرالجميع تلهفاً - بعد وفاة جدى - على معرفة الطريقة التى وزع بها الميراث.

قال عمى مهران إن خلافة الوارث لما يملكه موروثه من أموال وعقارات وأراض ومتعلقات شخصية، لا دخل فيها لإرادة الوارث، ولا لإرادة الموروث، إنما ثبت للوارث بحكم الشرع، وتؤول بها ملكية النصيب الموروث، بصرف النظر ما إذا وافق الوارث. خلافة المرء فى دنياه تختلف عن الخلافة فى الشأن الصوفى، خليفة الولى معروف فى حياته، ولا يخلفه سواه، هو شيخ الطريقة، وراعيها، وصاحب الكلمة النافذة.

خمن خالى زاهر أن جدى الهادى ربما اشترط أن يقتصر الميراث على الذكور دون الإناث، من تريد حقها فإنها تعقد على ذكر من العائلة، تتصل أوراقها بأغصان الشجرة.

قال :
- التساوى بين الأبناء واجب شرعى.
أرجع رفض عمى مهران لميراث الإناث، أنه سيجعل جزءاً من المال يخرج من تركته. لو أن جزءاً من التركة ذهب إلى غريب، فسينفرط - هذا ما قدره - عقد الأسرة، عقد العائلة .
- إذا رفض جدى الهادى توريث البنات، هل يستثنى عمتى عائشة ؟
وأغمض عمى مهران عينيه متصعباً :
- من المستحيل أن نعرف ما يخفيه أبونا!
تلاقت الدعوات فى أن يرث الأبناء جدى فى حياته، يحصل كل واحد على نصيبه، أجدى من توقعات الشقاق بين الورثة، إن وجدوا فى الوصية ما يرفض الاتفاق.
أقعد المرض جدى. لم يعد يغادر حجرته، حتى الطعام والوضوء، وما يحتاج إليه، كان نسوة البيت يوفرنه له، فلا يترك موضعه. ثم انتقل - بتأثيرات المرض - أو نقله عمى مهران - إلى السرير فى غرفته بالطابق الأرضى، كان قد اختارها لإقامته بعد أن أدركه الوهن. لها شباك حديدى يطل على مقام سيدى نصر الدين.
كان عمى يشاهد جدى الهادى يتجه بعينيه ناحية شباك الغرفة، ويتكلم بما لم يتبينه جيداً، إنما هى كلمات غير متصلة، التقط منها: الوصية، التركة، الصندوق، الورقة، القلعة، الأحفاد .
فسر عمى ما رأى بأن صلة ما، قائمة، بين جدى الهادى وسيدى نصر الدين.
طالت الأيام. بدت حياة جدى معلقة، لم تشهد تحسناً، ولا طرأ عليها ما ينهى الانتظار، شمعة تضاءلت ذؤابتها، توشك أن تنطفئ، دون هبة هواء.
لما أغلق جدى عينيه، وفتحهما، انفرجت شفتاه، وارتعشتا، حدسنا أنه يتهيأ للرحيل، يوشك أن يمتص شهيقه الأخير، لم

يسكن الجسد تماماً.

اقتعد أبناؤه وحفدته الأرض، لصق الجدران، ينتظرون شهقة ما قبل الرحيل. أو ما قد يسبقها من كلمات، تضيف إلى الوصية، تلطف من التأثيرات المتوقعة فيما لو فرضت الطبيعة الإنسانية تأثيراتها، فينسى الابن أباه، وينسى الحفيد جده.

●●●

قرأ المحامى الوصية .

لم يستقبل - بحجة ضيق المكتب - سوى القلة من الأعمام والأخوال، تبعهم الكثير من الأبناء والحفدة، تعطلت - بتزاحمهم - حركة المرور فى شارع محرم بك والشوارع الجانبية ، إلى ميدان المحطة.

نصح جدى الهادى أن يكون أبناؤه وذريتهم متساوين، فلا تفاقم الضغائن والأحقاد ما ظهر فى حياة العائلة، وثبتت ملامحه.

جعل لكل نصيب، لم يحذف، ولم يضف، كلهم أبناؤه وحفدته، للمرأة مثل حظ الذكر، للصغير مثل الكبير، ما يعنيه أن التركة ينبغى أن تؤول إلى مستحقيها، ومن يستحقونها لابد أن يدركوا الحلقة الأولى فى السلسلة، هم يرثون من بذل حياته، وترك لهم ما ادخره، يعينهم على أعباء الحياة.

هدد أبناءه وأحفاده إن أنكروا وصيته، لا يعملون بما جعله شرطاً للوصية. قال إن خروجهم عن الشرط، سيتبعه اختفاء التركة من أيديهم. لن تظل التركة فى حوزة من ينسى الشرط.

قال المحامى للنظرات المتسائلة:

- شرط الجد أن تذكروه دائماً!

وفرد الأوراق ليراها الجميع:

- هذه وصية جدكم، لا يحل لكم الميراث ما لم تعملوا بها.

ونقر بقلمه على المكتب:

- لن يحصل الورثة على أنصبتهم من الوصية، ما لم تنفذ كما أوصى الجد.

تبادلنا نظرات الدهشة لقول الرجل إن الجد الهادى جعل تذكر الأبناء والحفدة له شرطاً كى يحصلوا على إيراد الميراث، من ينسى فإن محامى التركة يمنع نصيبه.

قال عمى مهران :

- كيف ننسى جدنا ونحن نعيش فى خيره؟

قال عمى صبرى :

- قد نتذكر الخير وننسى مصدره !

قال خالى زاهر:

- شرطه هذا يدفعنا إلى تذكره دوماً!

قال وائل ابن خالى زاهر:

- لو إننا نسيناه.. كيف يعرف ؟

قال الأسطى طه السبيلى:

- مات جدكم على مكاشفات وكرامات، وهو يستطيع الرؤية والفعل من داخل ضريحه.

روى الكثيرون أنهم التقوا الشيخ عبد القادر الدجوى فى شارع الميدان، قال من خلال ابتسامته الهادئة :

- جدكم يثق من وفائكم لوصيته !

● ● ●

شغلنا الأمر .

تمنينا لو أننا نسينا الوصية لنعيش حياتنا، دون قلق أو خوف.

تبدلت أحوالنا، نحرص أن نذكر اسم جدى الهادى فى مناقشاتنا، يتناثر اسمه على ألسنتنا ونحن نركب البلانسات فى عرض البحر، عند جلوسنا على الكورنيش الحجرى، فى الموالد والجلوات وحلقات الذكر، وأثناء تناول الطعام، والفرجة على

التليفزيون، وقبل أن نخلو لزوجاتنا. تضمه الأسئلة والأجوبة، والملاحظات، واستعادة الماضى، ومناقشة أوضاع زماننا، وتدبر المستقبل. تتملكنا الخشية من أن يبلغ جدى صمتنا عن ذكر اسمه، يرفع مدده عن أبنائه وحفدته، يواجهون ما لا يعرفون، ويعجزون عن تصوره.

ربما تعمد أحدنا تناسى الاسم، يختار اللحظة التى يجب أن تكون الكلمات مرادفة للاسم فيهمله، يتلفت - فى اللحظة التالية - حوله، يخشى أذى الجد لأنه أهمل وصيته.

●●●

حين امتلأت نفوسنا بما نعجز عن تحمله، دعا عمى مهران إلى لقاء - يضم الجميع - فى بيت جدى.

تقاطر أعمامى وأخوالى وأبناؤهم على بيت جدى. ضاقت بهم القاعة، جلسوا على السلالم الخشبية، المفضية إلى الطابق الأول، استندوا على الدرابزين المعدنى، الدائرى.

يلى باب المدخل قاعة، تتوسطها فسقية ساكنة، وعلى جانبيه ست حجرات متقابلة. فى الواجهة سلم يفضى إلى الطابق الأعلى، إلى جانبه قاعة واسعة، أزيح ما بها من طسوت وأزيار وكراسى خشبية صغيرة. فى المدخل الأيمن حجرة صغيرة مغلقة، كأنها ليست من البيت، نهمل نثارات سوداء على بابها، ربما كانت دماء تبدل لونها بمضى السنين. قيل إن جدنا الهادى كان يزج فى الحجرة أبناءه، ويعاقبهم على الأفعال الخاطئة.

طالب عمى مهران أن يأخذ كل واحد ما يجد فيه فائدة. إذا أراد اثنان أو ثلاثة الشيء نفسه، يلجأون إلى الأكبر سناً، يقرر الأولى بالحصول عليها، أو يوزعها بالتساوى. وقال عمى مهران إن الوصية تجوز بكل المال، أو بعضه، لا تقتصر على الثلث. قال وائل ابن خالى زاهر: لماذا لا نسقط هذا الشرط الغريب ونتقاسم التركة

بالتراضى؟. وقال عمى صبرى: هل نخالف وصية جدنا ؟

قال عمى مهران:

- ما قيمة الوصية إن لم تنفذ ؟

قال خالى زاهر:

- الوصية التى تخالف الشرع لا قيمة لها.

- هذه أمواله، هو حر فيها.

- نحن أبناؤه، من حقنا أن نرثه بما شرعه الله!

تعالت الأسئلة والأجوبة والآراء والملاحظات والنصائح والتوبيخات والاتهامات المتبادلة. اختلطت الأصوات، فغاب المعنى المحدد.

ارتفع صوت خالى زاهر بما أسكت تلاغط الأصوات:

- من حق الجد أن نتذكره بعد رحيله.

وداخلت صوته نبرة متسائلة:

- لكننا لن نتذكر إلا الصور التى خلفها فى حياتنا؟

امتدت المناقشات، طال الأخذ والرد: هل يخشى الجد نسيان اسم الهادى، أم نسيان أقواله وأفعاله؟

لو أن المعنى فى الاسم، فلابد أن يستعيد الأحفاد - فى الأجيال المتعاقبة - ما يذكرهم باسم الهادى. لكل عائلة لقب، ولقب عائلتنا الهادى، اسم الجد نفسه، هو فى الذاكرة بالضرورة، أما طلب الجد تذكر أقواله وتصرفاته وما خلفه، فإن النسيان - ربما - أفضل من التذكر.

رويت وقائع، وجد فيها أعمامى وأخوالى ما ينبغى إهماله، رأوا أنها لا تعبر عن السيرة الحقيقية للجد الهادى.



الصندوق

تجمع جدتى الأشياء المتناثرة، تعيدها إلى الصندوق، تتلفت حولها لتتبين ما إذا كانت قد نسيت شيئاً، ثم تضع القفل بين الحلقتين، وتحكم إغلاقه بالمفتاح، وتدس المفتاح فى صدرها.

البيت من بابه. إلى جانب المدخل غرفة تطل نافذتها الحديدية على شارع قصر رأس التين. جعلها أبى لاستقبال زواره. السلالم تفضى إلى ثلاثة طوابق، تقطن فيها أسر العائلة، بينما جعلت جدتى لنفسها حجرة فى السطح، تطل على الخليج، والقوارب المتناثرة، وورش السفن، والطريق إلى البوغاز، تقضى فى داخلها معظم أوقات اليوم. ربما جلست على بابها، ترقب لعبنا السيجة والحجلة والبلى ونط الحبل وأولها إسكندرانى.

فى حجرة جدتى سرير، لصق النافذة، إلى جانبه طاولة معدنية صغيرة، فوقها سبرتاية تغلى عليها القهوة، وصندوق من الخشب المطعم بالصدف، وعلى الأرضية سجادة من تداخل قطع القماش الملون.

تسحب الصندوق من أسفل السرير الخشبى الصغير، يطول تقليبها فيه، أو يقصر، ثم تدفعه - ثانية - إلى موضعه. تحذرنا من الجلوس فوقه، أو محاولة فتحه، اتركوه لى، ومارسوا حياتكم بعيداً.

لا أذكر أنها تركت المفتاح لأبى، أو لإخوتى، كى يبحثوا عن شيء تريده. تخرج حلقة الدوبارة الصغيرة، والمفتاح فى داخلها. تتأكد من موضعه بين إصبعيها، قبل أن تدسه فى الثقب. تخبط الغطاء براحة يدها، ثم ترفعه.

- تخشين ضياعه؟

قالت فى تأثر:

- هذا هو الصندوق الثالث.

أردفت فى تأثرها :

- تركت صندوقين فى حوزة أبيك ، فأضاعهما .

ثم وهى تهز رأسها:

- لذلك حرصت أن يظل فى حجرتى.

وأودعت نظرتها تأثراً:

- خوفى من ضياع الصندوق له ما يبرره!
- هل استعدت ما كان فى الصندوقين الضائعين؟
- فى هذا الصندوق ما يكفى كى أطمئن.
تطيل جدتى البقاء داخل الحجرة المغلقة. أعرف أنها فتحت الصندوق، وقلبت ما فيه من أشياء صغيرة.
كانت تجلس إلى جوار الصندوق، تعيد ما تتذكره من الحكايات والحواديت والأمثال والألغاز.
أقول لها مداعباً:
- أريد أن أشاهد كنز على بابا.
أضيف لنظرتها المتسائلة:
- ما بداخل الصندوق.
وهى تشوح بيدها:
- كما ترى.. أشياء لا قيمة لها!
قد تقلب - من نفسها - فى الصندوق، إن لم تعثر على ما تريده، تخرج كومات من داخله، تضعها على الأرض، فيتاح لها تبين ما تبحث عنه.
مجموعة هائلة من الأشياء الصغيرة: أمشاط عاجية، تذاكر قطار، علب كبريت، ولاعة، أقلام رصاص مستعملة، قصافة، قلادات، أساور فضية وذهبية، خواتم، أقراط، سلاسل صغيرة، أحجار كريمة، أوراق صفراء مهترئة، أقلام حبر، مزق قماش ملونة، مصاحف، مسابح، أحجبة، جمل - معظمها مطموس - فى أوراق كراسة، رسائل قديمة يحيط بها أستك، مناشف ورقية، وردة ذابلة، سراويل داخلية، مناديل، عرائس صغيرة، كرات، صور تآكلت حوافها، أطباق مزخرفة، عملات فضية، قطع ذهب، مقصات، لفات خيط، بكرات، إيشارب، حذاء طفل، تماثيل خزفية، ساعة يد، منبه، زلطة لا تتكلم عن قيمتها، أكواب، قارورة عطر، شرائف

مطرزة، أربطة عنق، طواقى مزينة بخيوط مذهبة، عقود من الخرز الملون، ولاعة سجاير، نظارة شمسية، ساعة بكاتينة، شال، شبشب زنوبة. وكانت تحتفظ فى الصندوق بقطعة من كسوة الكعبة، لم ترو لنا كيف أتت بها، وإن أكدت أنها هى التى تحفظ على البيت أمنه وسلامته.

أقول لها:

ـ هل تحتاجين إلى كل هذه الأشياء؟

تعيد قولها:

ـ طبعًا، لكل شيء أوان استعماله.

تجمع جدتى الأشياء المتناثرة، تعيدها إلى الصندوق، تتلفت حولها لتبين ما إذا كانت قد نسيت شيئاً، ثم تضع القفل بين الحلقتين، وتحكم إغلاقه بالمفتاح، وتدس المفتاح فى صدرها.

إذا حدث ما يثير القلق والخوف والأسئلة، فإن جدتى تدس يدها فى صدرها، يخرج أصبعاها بالمفتاح المتدلى من قطعة الدوبارة. تميل على الصندوق، تفتحه، تخرج منه صوراً وكتابات وخرائط صغيرة، تتأملها، وتدور بإصبعها حول ملامح فيها، وتهمس بكلمات كأنها تخاطب نفسها.

ما كان يحيرنى كتب صغيرة تتخلل الأشياء التى تخرجها جدتى من داخل الصندوق، تكتفى بالقول: هذه كتب فى التاريخ. لم تتحدث عما إذا كانت تحتفظ بها لأنها بعض ما ورثته، أم أن هناك أسباباً أخرى لا أعرفها.

لم تكن جدتى تعرف القراءة، لكنها كانت تفتح الرسائل المطوية داخل حقيبة جلدية صغيرة، تقربها من عينيها، تشمها، تتأمل الكلمات كأنها صور موصولة بالحنين. إذا حاول أحدنا أن يقرأ ما بالرسائل، أعادت طيها، ودستها فى داخل الحقيبة.

علا صوت خالى نعيم يحذر من هجوم على بحرى ـ لم يكن

يتوقعه أهله - من بحارة سفينة أجنبية، حطموا - بتأثير الحمر - بارات شارع اللبان، ومضوا فى ميدان المنشية ، وطريق الكورنيش، ترافقهم الرياح والنوات والأعاصير، ارتفعت الأمواج فوق المصدات الإسمنتية والكورنيش الحجرى، وغرقت الشوارع والساحات والخلاء والحدائق ومداخل البيوت والدكاكين.

تربعت جدتى أمام الصندوق، رفعت غطاءه المنقوش. مالت - ملهوفة - تقلب فى محتوياته، لا تتأملها، ولا تتشممها، كما اعتادت فى أوقات خلوها إلى ما بداخل الصندوق. بدا أن ما يشغلها فى التقليب هو العثور على شيء محدد.

كان الفزع يملى تصرفاتها، فزع حقيقى، دفعها إلى إلقاء الأشياء دون أن تلحظ ما إذا كانت قد انكسرت.

أخرجت جدتى كل ما وصلت إليه يداها داخل الصندوق، نثرتها حولها، لم تلحظ إن ظلت الأشياء محتفظة بسلامتها. بدت ملهوفة فى البحث عما لا أتبينه، ألقت بعض ما فى الصندوق بعيداً.

أطلقت تنهيدة راحة ، وهى تخرج جراباً صغيراً، قديماً، سحبت منه خنجراً فى حجم قبضة اليد. لم تقلّبه فى يدها، فأدركت أنه الشيء الذى كانت تبحث عنه.

دفعته لى وهى تغالب التوتر فى صوتها:

- خذه.

وأومأت برأسها ناحية الباب المفتوح.

المحتـــويات

صدر عن كتاب اليوم

- الحريم والسلطة - سلمى قاسم جودة - أغسطس ٢٠٠٥.
- نجيب محفوظ والإخوان المسلمون - مصطفى بيومى - سبتمبر ٢٠٠٥.
- المسلمون فى الصين - د. عبد العزيز حمدى - أكتوبر ٢٠٠٥ .
- ملكة تبحث عن عريس - رجاء النقاش - نوفمبر ٢٠٠٥.
- الحب والضحك والمناعة - د. عبد الهادى مصباح - ديسمبر ٢٠٠٥ .
- عبقرية المسيح - عباس محمود العقاد - يناير ٢٠٠٦.
- كتاب الحب - يسرى الفخرانى - فبراير ٢٠٠٦.
- كلمات للضحك والحرية - على سالم - مارس ٢٠٠٦.
- قضية سيدنا محمد - محمود صلاح - أبريل ٢٠٠٦.
- فوبيا الإسلام فى الغرب - د. سعيد اللاوندى - أبريل ٢٠٠٦ .
- زمن سيدى المراكبى - مجموعة قصص لأكثر من كاتب - مايو ٢٠٠٦ .
- حكاية ابن سليم - على عيد - يونيو ٢٠٠٦.
- إبليس - عباس محمود العقاد - يولوى ٢٠٠٦.
- فكرة - مصطفى أمين - أغسطس ٢٠٠٦.
- ثقافة المصريين - فؤاد قنديل - سبتمبر ٢٠٠٦.
- احجز مقعدك فى الجنة - جمال الشاعر - أكتوبر ٢٠٠٦.
- "إسكندرية شرقًا وغربًا" و"عمدة عزبة المغفلين" - محمد محمد السنباطى ورضا سليمان - نوفمبر ٢٠٠٦.
- مع ابن خلدون فى رحلته - د. خالد عزب ومحمد السيد - ديسمبر ٢٠٠٦.
- الراقصون على النار - محمود النواصرة - يناير ٢٠٠٧.
- تأملات فى العقل المصرى - طارق حجى - فبراير ٢٠٠٧.
- دفاعًا عن المرأة - د. جابر عصفور - مارس ٢٠٠٧.
- كان زمان يا مان - سمير الجمل - أبريل ٢٠٠٧.
- عماد مغنية الثعلب الشيعى - مجدى كامل - مايو ٢٠٠٧.

- العرب ومحرقة اليهود - ترجمة د. رمسيس عوض - يونيو ٢٠٠٧ .
- رحلات بنت قطقوطة - يوليو ٢٠٠٧.
- أسئلة الحب الصعبة - يسرى الفخرانى - أغسطس ٢٠٠٧.
- مصر القديمة فى عيون حديثة - جمال بدوى - سبتمبر ٢٠٠٧ .
- ١٠٠ سنة سينما - عزت السعدنى - أكتوبر ٢٠٠٧.
- رقص الطبول - ترجمة محمد إبراهيم مبروك - نوفمبر ٢٠٠٧.
- ياقلب مين يشتريك - سعيد الكفراوى - ديسمبر ٢٠٠٧.
- شيطان فى بيتى - عزت السعدنى - يناير ٢٠٠٨.
- الملكة فريدة وأنا - د. لوتس عبد الكريم - فبراير ٢٠٠٨.
- صورة المرأة المسلمة فى الإعلام الغربى - د. فوزية العشماوى - مارس ٢٠٠٨.
- صكوك الغفران الأمريكية - معصوم مرزوق - أبريل ٢٠٠٨.
- أجمل قصص الحب من الشرق والغرب - رجاء النقاش - مايو ٢٠٠٨ .
- حصاد الذاكرة - أحمد إبراهيم الفقيه - يونيو ٢٠٠٨.
- سرى الصغير - مكاوى سعيد - يوليو ٢٠٠٨.
- روكا والملك - عبد القادر محمد على - أغسطس ٢٠٠٨.
- الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية - د. خالد عزب - سبتمبر ٢٠٠٨ .
- من علّم محمداً هذا - جلال السيد - سبتمبر ٢٠٠٨.
- نفايات إسرائيل البشرية - فؤاد حسين - أكتوبر ٢٠٠٨.
- سوق الجمعة - فؤاد قنديل - أكتوبر ٢٠٠٨.
- أمريكا فى مفترق الطرق - د. حمدى صالح - نوفمبر ٢٠٠٨.
- مصطفى محمود.. سؤال الوجود - د. لوتس عبد الكريم - ديسمبر ٢٠٠٨.
- زائرة الأحد - عبد الرشيد الصادق محمودى - يناير ٢٠٠٩.
- امرأة على الحافة - د. سعاد جابر - منتصف يناير ٢٠٠٩.
- لماذا؟ - شريف الشوباشى - فبراير ٢٠٠٩.
- الريفى - يوسف أبورية - مارس ٢٠٠٩.
- زمن جميل مضى - د. جابر عصفور - أبريل ٢٠٠٩.

- أيام مع الولد الشقى - سامى كمال الدين - منتصف أبريل ٢٠٠٩ .
- نزول النقطة - جمال الغيطانى - مايو ٢٠٠٩.
- حكايات من بلاد غريبة - فتحى الجويلى - منتصف مايو ٢٠٠٩ .
- ما ليس يضمنه أحد - خيرى شلبى - يونيو ٢٠٠٩ .
- تنوير طه حسين - سامح كريم - منتصف يونيو ٢٠٠٩ .
- اللحظات الأخيرة فى حياة جمال عبدالناصر - عمرو الليثى - يوليو ٢٠٠٩ .
- المغنى والحكاء - فاطمة ناعوت - منتصف يوليو ٢٠٠٩ .
- مبروك لولو حامل - د.سامى هاشم - اغسطس ٢٠٠٩ .
- رحلتى الى الله - عادل حمودة - سبتمبر ,٢٠٠٩
- ثقافتنا بين الوهم والواقع - طارق حجي - اكتوبر ٢٠٠٩
- حاجز الخوف - محمود النواصرة - نوفمبر ٢٠٠٩
- فتيات للفرجة فقط - عزت السعدني - منتصف نوفمبر ٢٠٠٩
- المعاني فى الاغاني - سليمان الحكيم - ديسمبر ٢٠٠٩
- المتعاقدون - تحية وداع للحمير - منتصف ديسمبر ٢٠٠٩
- اسوق الغمام - احمد الشهاوى - يناير ٢٠١٠
- المصريون الجدد - سلمي قاسم جودة - منتصف يناير ٢٠١٠
- يوسف وهبى ـ السيرة الاخري لاسطورة المسرح ـ د. لوتس عبدالكريم - فبراير ٢٠١٠
- الضعف الجنسى والانجاب ـ د. عادل أبوطالب ـ متصف فبراير ,٢٠١٠
- تصبح على خير ايها الحزن ـ سهام ذهنى - مارس ٢٠١٠
- بشر تحت الطلب - حنان ابوالضياء - متصف مارس ٢٠١٠
- عقارة الجسد - صلاح عبدالسيد - ابريل ٢٠١٠
- الصيدلى الاكلينيكى - د. احمد عبدالعزيز - متصف ابريل ٢٠١٠
- عمارة الأضرحة - محمد عبدالسلام العمرى - مايو ٢٠١٠
- توتة توتة بدأت الحلوتة - سماح أبوبكر عزت - يونيو ٢٠١٠
- الشوارع فى الرواية المصرية ـ هالة فؤاد ـ يوليو ٢٠١٠
- النبى محمد فى الأدب المصرى ـ اغسطس ٢٠١٠
- مطبخ رمضان ـ حنان أبوالضياء ـ متصف أغسطس ٢٠١٠
- مقومات النجاح في الحياة ـ د. كلير فهيم متصف سبتمبر ٢٠١٠
- غربة الأحباب ـ سلوى الخطيب ـ سبتمبر ٢٠١٠ .

إذا وجدت أى مشكلة فى الحصول على



إذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات

فلا تتردد فى الاتصال بنا على أرقام :

٢٥٧٨٤٤٤٤ ـ ٢٥٩٤٨٢٢٣

أو بالبريد الإلكترونى على العنوان التالى:

nawal@akhbarelyom.org

بطاقة فهرسة

جبريل ، محمد لطفى

في الليل تتعدد الظلال/ محمد لطفى جبريل

ط١ ـ القاهرة : دار أخبار اليوم ، كتاب اليوم ٢٠١٠

٦ شارع الصحافة القاهرة

١٠٢ ص ، ٢٠ سم . – (كتاب اليوم) تدمك ٩٧٧٠٨١٥٠٣٩

١ ـ القصص العربية

أ ـ العنوان

٨١٣

رقم الإيداع : ١٩٠٩٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I . S . B. N

977 08 1503 9



العنوان الاليكترونى

www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى

ketabelyom@akhbarelyom.org



لازم تتكلم انجليزي !!

احدث اصدار 2010 كورس متكامل لتعليم اللغة الانجليزية بطريقة عصرية و ممتعة وباسرع وقت ممكن البرنامج الوحيد بالصور اللايف و الصوت البشرى لمتخصصين اجانب

شهادة دولية معتمدة فقط لعملاء اوركيدا

الان مع مجموعة هتتكلم انجليزى هتقدر تتعلم الانجليزية و تحصل على شهادة دولية معتمدة صادرة من الاكاديمية الدولية بولاية كاليفورنيا , من خلال وكلائها المعتمدون .

تاكد من وجود دليل اوركيدا للتعرف على اجراءات الحصول على الشهادة

و المفاااجاة ... هدية مجانية

اسطوانة قاموس .. انجليزى - فرنسى - المانى - ايطالى - اسبانى

سعر خاص بمناسبة العودة للمدارس !!

اتصل..نصلك لباب بيتك

02 25285566

0108010015

او عبر الانترنت

www.orcheda.com

سجل الان و اعرف مستواك .. مجانا

اوركيدا وكيل معتمد من كبرى الجامعات الامريكية و الحاصلة على شهادة الجودة ايزو ٩٠٠١ برقم ٤٠٣١



لأول مرة فى مصر

إمتلاك

وحدة سكنية فى دولة الإمارات يعطيك أنت وأسرتك
حق الإقامة حسب قانون دولة الإمارات

امتلك المستقبل.. بسعر اليوم
دفعة حجز
٢٩ ألف

برج البوابة
دولة الإمارات

مساحات متنوعة

أطول فترة سداد بدون فوائد وأعلى عائد إستثمارى سنوياً

- ١٠ دقائق من دبى
- حمامات سباحة
- مدينة إنترنت
- صالات جيمانيزيوم
- حراسة ٢٤ ساعة
- وحدات كاملة المرافق

تملكها الآن
قبل الغد


شركة أبو ظبى للإستثمارات

٦٦ ش جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور التاسع - شقة ٩٠٢
ت: ٣٧٤٨١٣٢٩ / ٣٧٤٨١٣٣٩ - ٢٠٢+ فاكس: ٣٧٦٢٠١١٩ محمول: ٠١٤٤٠٠٤٤٣٢ - ٠١٤٤٠٠٤٤٣١



الثمن:
٦ جنيهات